

روايات مصرية | ٧٧

52

د. محمد خير الدين توفيق

سافاري

أيام الكونغو

روايات مصرية

سافارى

taha

مغامرات طبيب شاب

بجاهد لكي يظل حيًا

ولكي يظل طبيبنا



مصنف مصرى مائة فى المائة لا تشوبه

شبهة الترجمة أو الاقتباس أو النقل عن

أية قصص أوروبية .

www.facebook.com/groups/ma7ara

إشراف

الأستاذ / حمدي مصطفى



جميع الحقوق محفوظة للناسـر

سواء النشر الورقى أو الإلـكترونى .

وكل اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع

أو نشر ورقى أو إلكترونى دون

الحصول على تصريح كتابى من

الناسـر ، يعرض المـركب للمسائلة

القانونية .

العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - (المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية
ت 26823792 - 26825800 - 24677371 ، فاكس ، 24677188) (منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل مدقى الفجالة
الرئيسى للفجالة ت 25882046 - 25882047 - 25908455 - 25908210 - فرع الفجالة ت 25928202 - 25932403
فاكس ، 25890401) (4 شارع الإسماعلى - منشية البكرى ، وكس مصر الجديدة - القاهرة ت 22586197
24550499 ، فاكس ، 222/22596650) - (الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك - ت 03/4970840 ، 03/4970850)

روايات مصرية

سافرى

52

مغامرات طبيب شاب
يجاهد لكى يظل حيًا
ولكى يظل طبيبًا

أيام الكونغو

بقلم : د . أحمد خالد توفيق

الغلاف بريشة : أ . أيمن القاضي

العربية الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - مصر
الشارع: المنطقة الصناعية الجديدة - رقم 1000
0111 222 2222 - 0111 222 2222

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) ... طبيب مصرى شاب بجاهد* - كما يقول الغلاف - كى يبقى حيًا ويبقى طبيبنا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفريّة) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراي) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظ (سافارى) فلتخيل أنها (صفري) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بظلم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب

مصرى عادى جداً ، فقد وجد كثيراً من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق
 يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..
 هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطيبة
 الكندية الرقيقة (برنات جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك
 الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرترقة الذين لا يمزحون ،
 والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك - كما قلنا - من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حياً
 وتظل طبيباً .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل
 قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب
 والعواطف والسياسة .. لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد
 جرب أن يصب هذا الخليط فى كنوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا
 المجنون بعد إلا فى مرأتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شيء

القصة تبدأ من نهايتها

شهادة آلان فرانسيل (عامل الاتصالات)

هل لى فى لفافة تبغ لو سمحت ؟ معذرة فانا مرتبك .. ينى ترتجف .. لكن لا ... سأطفئها حتى لا أحرق ثيابى .. أعرف أننى أعطيك انطباعاً غاية فى السلبية عن حالتى العقلية ..

ماذا كنت أقول ؟

عندما تسمع صوت السلاح النارى ، فمن العسير أن تصدق أنه يحدث كل هذا الضجيج . لا شك أن السينما تقدم لك صوتاً زائفاً لا يمت للحقيقة مهما بلغت كفاءة سماعات الدولبى .

الملاحظة الأخرى هى أن الأمر كله لا يبدو حقيقياً ... لا تصدق أن هذه الضوضاء يمكن أن تجرد إنساناً من حياته .

لكن كل هذا حقيقى .. هذا ليس كابوساً ..

أنا موظف اتصالات بالطبع كما تعرف .. أقضى معظم يومى مع زميلى رانكلين وسماعة اللاسلكى على أذنيها . مع تلك الرائحة الباردة المميزة لأجهزة الاتصالات ..

شعرت في البداية بهرج ومرج في ردهة وحدة سافارى . وحدة سافارى 7 من الوحدات حسنة التنظيم ، وهناك إدارة أمنية ممتازة . يصعب أن يختل هذا النظام المحكم ، لهذا شعرت بشيء غير معتاد . خرجت من غرفة الاتصالات لأرى ما يشبه قطعان أفيال تركض .. أو وقف بطل العالم في المصارعة في الطريق لداسوه بأقدامهم . وكان من المستحيل أن تسأل أى واحد منهم عن سبب ركضه .

في النهاية لمحت ممرضة اسمها (ران) - جارة لى - تركض وقد النثر شعرها الأسود على ظهرها وفقدت الكاب الخاص بالتمريض ، فهرعت نحوها أسألها .

قالت وهى على وشك الإغماء :

« توار حالاً ... دكتور أناطول قد جن ... »

ثم ركضت مبتعدة .. سمعت صوت الطلقات .. لكنى بالطبع لا أملك خبرة بهذه الأمور ، ولا أملك رد الفعل الذى يجعلك تتوارى عند سماع الطلقات .. لم أسمع صوت طنقات منذ كنت فى الجيش الشعبى الزائيرى .

لهذا وقفت في بلاهة أراقب ما يحدث ..
كان المشهد مروعا ..

دكتور أناطول المنقف الذي هو مقخرة لقبيلته ومقخرة لكينشاسا
كلها كان يمشى في الممر بتؤدة ، وهو يطلق السباب بلغة اللينجالا ..
ومن الملفت أنها اللغة الرسمية للجيش هنا .

كان يمشى في تؤدة وثقة كأنه يملك الوقت كله . أما ما أثار هلعى
فهو أنه يحمل بندقية آلية .. بندقية آلية حقيقية محشوة بالرصاص ..

رأيتَه يستدير نصف دورة . كان هناك أحد رجال الأمن يتحسس
مسدسه في الخلفية وهو لم يقرر ما يفعله بعد . أطلق أناطول دفعة
قصيرة من الرصاص فطار رجل الأمن ليضرب الجدار ويسقط .. ومن
حواله بركة دم ..

ثم واصل الطبيب الأسود مسيرته .. ومن حين لآخر يخرج مسدسا
من خاصرته ويطلق رصاصة على السقف ، كأنه ادخر رصاص
المسدس للتخويف لا أكثر .. فيما بعد عرفت أنه المسدس الذي أطلق
به رصاصة بين حاجبي دوسكانيش الضابط القوي .. كان هذا منذ
نصف ساعة فقط ..

أطار المشهد صوابى ، فهرعت إلى حجرة الاتصال وتواريت تحت
المكتب ..

هنا سمعت من يركل الباب بعنف .. وأدركت أنه دخل الغرفة ..

أطلق الكثير من السباب .. وكان زميلي رانكلين هناك لم يفهم بعد ما حدث .. كان عند النافذة يبحث عن سبب الضوضاء .. هنا أطلق الطبيب دفعة من الرصاص ليهشم كل أجهزة السنترال وشاشات الكمبيوتر ، وتصاعدت سحابة من الدخان فى المكان .. اللحظة التالية رأيت رانكلين يسقط أرضاً .. لم يبدُ كأنه مات .. بدا لى اللحظة كأنه تعثر ..

انتهى الأمر ..

رأيت قدمي د. أناطول فى سروالهما الجينز وأطراف المعطف . كان يقف هناك عند المنضدة . مستحيل أن أتوارى . مع بدانتى ومؤخرتى العملاقة ، لا بد أن رأسى فقط هو الذى كان مختبئاً ..

ربّ اجعل نهايتى سريعة غير أليمة ، ولتسننى زوجتى وأطفالى بسرعة ..

لا تدعهم يتعذبون يا رب .

هنا سمعت من يتكلم بالفرنسية .. كان متوترًا راجف الصوت لكنه يتكلم فى إصرار ..

كان يقول بلكنة فرنسية غريبة نوعاً :

« د. أنا تول .. أرجوك أن تلقى بهذا السلاح ! »

كان الرجل قد بلغ حالة شديدة من الجنون .. لكن بدا أن الصوت

منحه بعض الهدوء . قال فى شيء من التردد :

« ابتعد عني يا دكتور عظيم .. لا أحب أن أرى جثتك »

فهمت . الصوت الثانى هو للطبيب المصرى ذى اللحية القصيرة

الذى جاءنا من الكامبيرون .. اسمه الأول علام على ما أنكر ..

ماذا يفعله ؟ ليس على هذا القدر من الشجاعة ، وعلى كل حال ليس

من الشجاعة أن تواجه رجلاً يحمل بندقية آلية .. هناك خط فاصل

بقوة بين الشجاعة والبلاهة .. دعك من أن أنا تول قد أبحر فى نهر

بلا عودة .. لن يعود من شلالات الجنون أبداً . ليس أسهل من ضغطه

على الزناد ...

لكن صوت الطبيب المصرى عاد يقول وهو يرتجف :

« أنت لن تقتلنى .. أعرف هذا .. لكنى كذلك أكره أن أرى جثتك

الممزقة »

صرخ أنا تول :

- « أنا قد تجاوزت فرصة الخلاص .. أنتهى أمرى .. لابد أننى قتلث عشرة على الأقل بعد هذا الكلب .. »

عاد علاء يكرر فى إلحاح :

- « سوف تحاكم على الأقل .. هلم ناولنى هذا السلاح .. إن لم تفعل فلسوف يفرغون بنادقهم فيك لمدة ربع ساعة .. لن يبقى منك ما يكفى لملء قبضة »

- « وهذا هو الحل الوحيد ! »

ثم سمعت ما يشبه الالتحام الجسدى .. لا أقدر على الخروج من مكمنى لأرى .. هناك صراع لا شك فيه .. ثم سمعت ضربة قوية بشيء خشبى .. أعتقد أنه دبشك بندقية ..

عاد صوت الطلقات يتردد لكنى فهمت من يطلق الرصاص خارج الغرفة الآن ..

فى حذر أخرجت نفسى .. دماء رانكلين فى كل مكان .. لقد مزقه الرصاص تمزيقا .. مقاعد مقلوبة .. آثار أقدام دامية ، ثم رأيت جوار الباب ذلك الطبيب المصرى راقدًا على وجهه بلا حراك ..

متى حدث هذا ؟

هرعت نحوه وركعت جواره فسرني أنه يتألم بشدة .. الدم ينزف من رأسه . قصة بليغة مختصرة .. لقد التحم الرجلان وحاول علاء أن ينزع السلاح من يد خصمه ، لكن في تلك المواقف تسقط أرضاً على ركبتيك لتصير مؤخرة رأسك متاحة لمن يريد أن يهوى بدبك البندقية .. هذا أفضل من رصاصة في الرأس طبقاً . أحياناً يكون الألم الشديد هو الدلالة الوحيدة على الحياة ..

سؤال مهم : لماذا لم يرغب أناطول في قتل المصري ؟

★ ★ ★

ما حدث بعد هذا هو أنني سمعت رجال القوات الخاصة . يبدو أنهم طلبوا الجيش . سمعت تبادل طلقات ..

لسبب جنوني ما خرجت من مكمني وتواريت وراء رخام الكاونتر في الردهة ، فرأيت في نهاية الممر أناطول يحمل بندقيته ويطلق في السقف في كل الاتجاهات وهو يصرخ :

- « دوسكالييييييش !! »

الملاط يتساقط والكشافات تتفجر . وفي النهاية صدر صوت الكليك عارك .. لقد انتهت الحياة من ذلك السلاح اللعين ، فراح يضغط وصوت الزنهرك يتردد ... ثم أنه ألقى بالبندقية على الأرض وأخرج المسدس .

كان هذا المزاح كافيًا بالنسبة لرجال القوات الخاصة . وفي لحظات تحول الممر إلى غابة كثيفة من الدخان والموت ورائحة البارود .. لقد أطلقوا عليه بغزارة وجشع وغل .. انفلات أعصاب تام ..

أخيرًا انقشع الدخان وأمكنني أن أرى جثة أناطول الممزقة .. يبدو أنها تحولت لكومة من اللحم المفروم فعليًا ، والدخان يتصاعد من كل ثقب الرصاص .. لقد سقط جوار عربة صغيرة في الممر مما تحمل عليه المطهرات وأدوات غيار الجروح . تمسكت يده بها فقلبها .. تناثرت السوائل من حوله فبدأ كأنه ينزف مطهرات وليس دماء ..

كنت أرتجف من الرعب ، وأنا أرى رجال القوات الخاصة السود يركضون في الممر وهم في حالة توتر شديدة .. لقد تكوم ميتًا لكنهم ما زالوا في وضع تحفز ..

من الغرفة خلفي سمعت صوت أنين ..

استدرت فرأيت علاء الطبيب المصرى على ركبتيه .. كان يتحسس
مؤخرة رأسه بيد غرقت فى إلدماء ، وأدركت أنه يردد كلامًا ما
بالعربية ..

أدركت كذلك أنه يبكى بحرقة .. أعتقد أنه فهم ما حدث ..

لا أعرف لماذا حدث ما حدث ، لكننى أعتقد أن هذه أفضل النهايات
الممكنة . بعد كل من قتلهم أنا تول كان لابد أن يموت .. موته الآن أفضل
من موته بعد المحاكمة الطويلة ..

أعتقد أن الأجانب يطلقون اسمًا على الحوادث المماثلة .. عندما
يقرر موظف أن يطلق الرصاص ليقتل كل زملائه ..

أموك Amok .. وهى لفظة من الملايو تشير إلى هياج القبيلة الذى
يكتسح كل شيء كالإعصار . هم كذلك يطلقون على من يفعل هذا أنه
went postal ... أى أنه جُنَّ فراح يتصرف كموظفى مكاتب البريد .
لسبب ما يجن موظفو البريد فى أمريكا ويفرغون رصاص بنذقياتهم
فى زملائهم فى العمل .

لكن أنا تون لم يكن موظف يريد .. كان طيبنا بارعا هادي الجنان ..
هذا ما أستطيع قوله يا سيدي ..

اعتقد أن هذا لو كان فيلمًا سلطانيًا لكان المشهد جديرًا بكتابة

النهاية

(النهاية)

END

FIN

taha

www.facebook.com/groups/ma7ara

شهادة كيشا ليونيل (ممرضة فى وحدة سافارى)

أطفاى الخمسة فى البيت فى كينشاسا تعنى بهم أمى العجوز .

أعتقد أن على أن أنصرف يا سيدى ، فهى لن تستطيع مع سنها المتقدمة أن تعنى بهم جيدًا . إن زوجى سيعود فى الثامنة مساء . يجب أن أرحل .. لقد انتهت وريدتى فى الثالثة عصرًا وكان يجب أن أنصرف ..

اسمى كيشا .. أنا ممرضة فى الثامنة والعشرين من العمر وأقيم فى أحد أحياء كينشاسا . حى فقير هو ولا أنكر ذلك .. نحن فقراء يا سيدى .. وبالفعل أنا بدأت أنجب كالأرانب من سن الثامنة عشرة ..

أنا كنت هناك ..

أنت تعرف أن دكتور أناطول طبيب حميات . هو واحد من أكثرهم كفاءة وبراعة ، كما أنه يتمتع بضمير يقظ فعلاً ، لكنك تعرف أنه انقطع عن المجيء للعمل بسبب الأحداث الأخيرة .

كنت واقفة مع ماري مشرفة التمرريض أحدثها عن زوجي وعن مشكلة الأطفال المزمئة ، عندما رأيت الدكتور أناتول قادمًا .. دخل من الباب الجانبي ، وأقسم أنه نظر لي في وجهي لكنه لم يرني . كان في حالة ذهول تام .

قال شيئًا ما هو أقرب للغمغة .. تقريبًا لم يقل شيئًا ..

ثم إنه بصق على الأرض وغادر الغرفة . تبادلت نظرة مع ماري ، وشعرت بغصة في حلقى . هذا نذير شؤم فيما أرى لأن د . أناتول بمثابة روعه ، وليس من الطراز الذي يبصق عندما يغضب .

اتجهت للنافذة المفتوحة التي تطل على حديقة وحدة سافاري لأري ما يفعله .

كان قد خرج من البناية ومشى بضع خطوات ... هناك كان رجل الأمن فرانتز يقف مع جتدي من الجيش . إن الجنود في كل مكان من كينشاسا هذه الأيام ..

كانا يتكلمان ويدخان .. كل الرجال يدخنون معًا كأنهم ندماء يحسنون الخمر .. لم يلاحظا أي شيء مما يدور حولهما ، ورجل

الأسن يستند إلى جذع شجرة بينما الجندي قد أراح بندقيته الآلية إلى الجدار .

رأيت د. أناطول يمر جوارهما . عرفت على الفور ما ينوي عمله .
كأنتى رأيت ذات الفيلم من قبل . إيماءاته كلها قالت لى إنه سيفعل هذا
برغم أن هذا مستحيل .

لقد انحنى على الأرض وبسرعة البرق التلقت البندقية الآلية ...
القوة الرهيبة فى كتلة القولاذ والخشب هذه صارت بين يديه ..

استدار الجندي يحاول استرداد سلاحه ، لكن د. أناطول تراجع
للخلف وهو يحاول فك طلاس هذا السلاح . لابد أنه كان يعتقد أن
الضغط على الزناد يحل المشكلة .. كليك كليك .. لم ينطلق شيء ..

هرع الجندي ليلقى بنفسه على أناطول ، لكن هذا الأخير قرر أنه
يمكن استخدام البندقية بطريقة أخرى .. أمسكها من الفوهة وهوى بها
على صدر الجندي كأنه يبقى تهشيم الضلوع .

بالفعل سمعت صوت الارتطام وتهوى الرجل على الأرض برغم
ضخامة جسده . أخرج فرانتس سلاحه وصوبه على د. أناطول . أعتقد
أنه كان يقول له أشياء مثل :

« اترك السلاح يا دكتور .. لا أريد أن أطلق الرصاص »

لكن د. أناطول كان يجرى بعض التجارب السريعة على البندقية ،
بهد هذا الجزء أو ذاك .. وأعتقد أنه نجح لأنه جرب الزناد فانطلق
واهل من الرصاص على رجل الأمن .. وأعتقد أن الدفعة كانت قوية
لدرجة أنها ألقت بدكتور أناطول إلى الخلف ليسقط أرضاً . لاحظ أنه لا
يملك خبرة عسكرية ، ولعله أول سلاح يمسكه في حياته . أما الشخص
الأخر الذي سقط للخلف إلى الأبد فهو فرانتس .

أطلقت صرخة وشعرت بأننى سأفقد وعيى ..

سألتنى مارى عما هنالك فقلت من موضوعى بالنافذة :

« لقد قتله ! »

« قتل من ؟ »

ثم قررت أن تلحق بى لترى ما يحدث ..

كان المشهد ملحمياً .. د. أناطول قد نهض وأعتقد أنه تعلم شيئاً أو
شيئين عن قوة ارتداد هذا السلاح . بدا أكثر سيطرة وهو يتقدم عبر
الحديقة ، والتأثير كان درامياً .. لقد راح الناس يتدافعون ليفسحوا له
الطرق وهم يصرخون ، وخبأت الأمهات أطفالهم فى صدورهن ..

لكنه لم يبد رغبةً فى قتل واحد من المرضى ..

رأيتُه يتقدم نحو الجناح البعيد .. وسمعت صرخات عندما اقتحم

الباب ..

هذه المرة دوت طلقة قصيرة . وتعالى الصراخ أكثر ..

لقد بدأ الجنون أخيراً ...

صاحت مارى فى هستيريا :

- « هذا الجناح يدور ليصل لنا .. سوف يبلغنا ويقتلنا »

بدالى هذا الاحتمال سخيلاً .. أولاً هو سوف يستهلك طلقاته .. ثانياً

لا بد أن أحدهم سيقتله قبل أن يعبر كل هذه المسافة .. ثالثاً بوسعنا أن

نتوارى تحت المكاتب أو الأسرة أو ندخل غرفة الأشعة ونغلقها علينا .

كينشاسا تعج بانجنود وسوف يملئون المكان حالاً ..

الطلقات تنهمر وتتعالى ..

بصرف النظر عن نجائنا أو هلاكنا ، فالأمر بشكل ضغطاً عصيباً

مريغاً .. فكرة أن هناك من ينفجر منهم الدم ويموتون الآن فكرة لا

تطاق .

سألتنى مارى فى رعب :

.. « ماذا دهاه ؟ هل جُن ؟ »

ياله من سؤال .. كأن المرء يمكن أن يسرق بتدقية آلية ويقتل بها زملاءه لمجرد أن أعصابه مرهقة . بالطبع قد جُن ... لربما هو مدمن مخدرات كذلك ..

الطلقات كانت تنهمر بلا توقف ...

وكانها انفجارات في جدار هدوننا النفسى ..

ورحت أدعو الله أن ينتهى هذا الكابوس سريعا .. تنتهى حياته أو تنتهى الطلقات ..

taha

شهادة كريست جولمي (صاحب متجر وجار د. أناطول)

أنا كنت هناك يا سيدى فى شوارع ليوبولدفيل عام 1961 ... رأيت كل شيء .

اسمى كريست جولمي .. حاليًا أعمل فى بيع الفاكهة ، ويمكنك أن ترى متجرى هناك .. لست متأكدًا من سنّى بالضبط . لقد تجاوزت الخمسين ، لكن يمكنك طلبًا للدقة أن تجرى أنت الحسابات ...

رأيت السيارة العسكرية تجوب شوارع ليوبولدفيل .. عليها يقف الجنود المدججون بالسلاح . فى الخلفية يجنس ذلك الشاب التحيل المثقف مرهقًا هذه التعذيب والجوع ، وقد أحاط بعنقه حبل غليظ .. الرجل الذى حلم بمستقبل مختلف .. حلم بكونغو تكون ثرواته ملك أهله وليست مصدرًا لثراء بلجيكا .. حلم طويلًا بالاستقلال عن بلجيكا . المحتل القاسم القاسى .

أنا كنت هناك ..

كنت طفلًا فى العاشرة أركض فى الطرقات منبهراً بالمشهد الدامى الذى وجدته - كعهد الأطفال - مسلميًا .

لقد كان (باتريس لومومبا) فى حال سيئة وقد بدت عليه علامات
الوهن وسوء التغذية ، لأن موبوتو أصدر تعليماته بذلك على سبيل
النكاية . لم يكن موبوتو هو رئيس البلاد بعد ، بل كان تشومبى هو
الرئيس ، لكن موبوتو كان نافذ الكلمة .

كان لومومبا قد أمضى أياما فى السجن ، ثم طلب السفير البلجيكى
نقله إلى كاتانجا . كاتانجا كنز اليورانيوم الأفريقى الذى صنعت منه
قنابل أمريكا الذرية ..

كاتانجا هى مركز قوات الجيش التى سيطرت على البلاد وأطاحت
بلومومبا .

فى المساء عرفنا أنهم اقتادوه إلى بقعة منعزلة خارج السجن حيث
وقفت فرقة الإعدام متأهبية ، وسرعان ما سقط الرجل النبيل وسط
دمائه .

تتأثرت الاتهامات بعدها .. لم يكن موبوتو هو وحده المسئول ..
المخابرات المركزية الأمريكية لعبت دورا مهما ، وكذلك الحكومة
البلجيكية .. وعرفنا فيما بعد أن تشومبى حضر الإعدام بنفسه .

لمنع الناس من هواية صنع الأبطال ، تم تزويد الجثث كلها فى

حمض الكبريتيك المركز . لا أحد يريد مقابر شهداء تذكارية تصنع ثورة ..

ثار العالم لخبر مقتل لومومبا وخرجت مظاهرات فى معظم البلدان الحرة . وفى عدة بلدان هوجمت السفارات البلجيكية .

أنا كنت هناك أشاهد الموكب فى شوارع ليوبولدفيل ..

قيما بعد قيل لى إن لومومبا كان شيوعيا .. هذا غير صحيح . فقط كان الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت هو الملجأ الوحيد للفارين من الولايات المتحدة ورغباتها الاستعمارية .. كان من شبه المستحيل أن تكون محايدا ، لكن هذا ما نجحت فيه مصر والهند إلى حد كبير . ومن الجدير بالذكر أن أرملة لومومبا عاشت فى مصر بعد ذلك بدعوة من جمال عبد الناصر ، وتلقت معاشا ثابتا هى وأسرتها .

الحقيقة أن لومومبا بعد الاستقلال قوبل بثورة هائلة فى صفوف الجيش ، نظمته السلطات البلجيكية .. وقد استعان بالولايات المتحدة والأمم المتحدة طالبا العون . لكن هذا أدى إلى تسارع العنف ضده .. وانتهى الأمر باعتقاله ووضعه فى السجن ..

لم يكن هناك مزاح فى الأمر ..

الكونغو بلد غنى جدًا ، وهو مصدر هائل لليورانيوم ما كانت أمريكا تسمح بوصول الاتحاد السوفيتي له .

كان على الكونغو أن تتحمل رحيل لومومبا وحكم تشومبي الذي لم يطل ، وسرعان ما جاء موبوتو ليحكم البلاد حتى العام 1997 ...

طيلة تلك السنوات لم يكن اسم البلاد (كونغو) . موبوتو اختار لها اسم زائير .

بعد موبوتو استعادت البلاد اسم الكونغو على يد الرئيس كابيلا ، لكن ظلت لفظة (الديمقراطية) في الاسم ، وهي علامة سيئة .. لأن كل البلدان التي تحمل لفظة (ديمقراطية) في الاسم هي - كقاعدة - بلدان دكتاتورية .

كنت هناك ..

كطفل كنت أتواثب فرحًا بالمشهد المثير ، لكن أُمِّي التي كانت ذاهبة للسوق ضربتني بين لوحى كتفى لأصمت . وقالت هامسة :

« لن يتركوا الكونغو تفلت منهم أبدًا ... »

ولهذا كنا نقرأ في كتب المدرسة عبارة (الكونغو البلجيكية) ونرى على جدران صفوف المدارس صورة ليوبولد ملك بلجيكا . جاء الاستقلال ، لكنه استقلال شبيه بكل الدول الأفريقية

الأخرى .. التخلص من المستعمر الغربي الذي يحمل بندقيّة ،
ليأتى مستعمر محلى من أهل البلد ، ويتعاون مع الاستعمار
الغربي الذي يعود فى صورة احتكارات وشركات واستثمارات ..

★ ★ ★

عام 1966 لم تعد ليوبولدفيل بنفس الاسم .. صار اسمها (كينشاسا)
لكن هذا لم يدل على استقلال أفضل . لقد رحلت بلجيكا لتعود من الباب
الخلفى ، وما زال هذا هو الكونغو البلجيكى ..

أنا رأيت اعتقال جلوار عام 1969 .. المحامى الشاب الذى يمكن
جوارنا مع زوجته . رأيت السيارة يترجل منها الجنود .. لم ينتظروا
حتى يرد على الباب أو يفتحه ، بل هشموه بأحذيتهم الثقيلة ، وسرعان
ما كانوا يجرونه جرًّا بينما زوجته تصرخ والطفل (أناتول) يتمسك
بقدمه باكيا ..

فى نفس اللحظة تقريبًا ركل جندى النفل ليطير بعيدًا ، وصفع أحدهم
الأم لتسكت ، وهوى ثالث بدبشك البندقية على مؤخرة رأس جلوار ..
وسرعان ما تم وضع جلوار فى السيارة .. تلقى لكمة أخرى فى
أنفه فأغرق الدم صدره .. ذكرنى منظره على الفور بمنظر لومومبا
الذى رأيته منذ ثماني سنوات ..

سمعنا بين الناس المتزاحمين عبارة :

« شيوخى .. شيوخى »

لم يكن جلوار شيوخياً .. فى ذلك الوقت كان كل من يقف فى وجه نظام موبوتو يتهم بالشيوعية ، وأنا أعرف أنه كان مؤمناً بمبادئ لومومبا .. عرفنا يقيناً أننا لن نراه ثانية .. هناك اتفاق تحت الأرض يغيب فيها السجّاء فلا يرون الشمس ولا يعودون أبداً أو يراهم أحد . من يمت منهم يذوّب فى الحمض أو تلقى جثته للتماسيح . نحن فى الكونغو لا نتقصنا الوحوش سواء كانت آدمية أو غير آدمية .

كان المشهد مرعباً ، ولا شك أنه حفر للأبد فى ذهن د. أناطول الذى كان وقتها فى الثالثة من عمره . قلت لنفسى إن هذا الصبى لن يكون سوياً .. ما من صبى يرى أباه فى وضع كهذا وينسى ..

كان على أن أنتظر كل هذه الأعوام حتى أبرهن على أننى محق ..

لا أعلى بهذا أن هذا المشهد جعله ينتقم بإطلاق الرصاص على زملاء العمل بعد نيف و40 عاماً . لكنى أعتقد أنه أهد فى روحه الثرية المناسبة للعنف . لم تبق سوى البذرة

من وضع البذرة ؟ بصراحة لا أعرف يقيناً ...

شهادة جوسلين (بائعة وجارة د. أناطول)

اسمحوا لى بالجلوس .. كانت الصدمة قاسية حقًا ، وما زلت أشعر
بأن ساقى واهنتان .. أنا لم أحضر لحظة إطلاق الرصاص ، لكن
بوسعى أن أحكى لك الكثير عن د. أناطول .. لقد عاصرته لفترة طويلة
جداً ، بل وأجرؤ على القول إننى أحببته أغلب حياتى .

أحب هاتين العينين الصادقتين الحساستين والوجه النبيل .. هذه
البشرة السوداء التى لها لون الأرض .

اسمى جوسلين .. أعمل بائعة ثياب فى متجر . لا أكسب الكثير من
العمال كما هو بادٍ على لكنى كنت قادرة على الحياة . لم أتزوج قط .
فاتنى قطار الزواج على العموم .

كنت قد حسبت أن د. أناطول قد تعافى من الانهيار العصبى الذى
أصابه ..

كان قد قضى بضعة أيام فى مستشفى مونكول فى كينشاسا .. هذا
مستشفى ضمن العشرين مستشفى التى بناها موبوتو فى كينشاسا .
لماذا لم يعالج فى وحدة سافارى التى يعمل فيها ؟

أعتقد لأنه لا يريد أن يعرفوا أنه أصيب بانتهيار عصبي ..

كان يقضى الوقت هناك ينظر للسقف ويحلق فى المروحة التى تدور بلا انقطاع . كان يدخن بفضاعة ولا يكف عن إرسال العمال لشراء المزيد من التبغ له برغم أن هذا ممنوع هنا .

من حين لآخر كنت أجلس جواره فى الغرفة ، وأقرأ له من الكتاب المقدس . كان ينتمى لديانة سيمون كيمبانجو Kimbanguism . لم يكن متديناً لكنه اختار هذه الديانة ، لأن البلجيكيين كانوا يحرمونها . بينما كنت أنا بروتستانتية لكننا وجدنا أرضية مشتركة لتفاهم نوعاً .

كان قد بدأ يميل إلى الشك ، وقال إنه ما دام الشر ينتصر دائماً والضعفاء يسحقون ، فمن الصعب تخيل وجود إله يقبل هذا .. لكنى قلت له إن العالم الآخر سوف يعوضنا عن هذا كله . لو لم يوجد عالم آخر فلا عدالة ...

لم يكن يصغى .. هذه الآلام تنتهى عندما تنتهى لا تجدى أى كلمات هنا .



كان د. أناطول جارى فى ذلك الحى فى كينشاسا . نعيش على أطراف

البلاد حيث يفصل نهر الكونغو بيننا وبين الكونغو برازافيل . لقد كبرت وكبرت عبر الأعوام ..

أعرف قومه وأعرف أسرته جيدًا ...

فيما بعد توفى الجميع فلم يبق سواه يعيش وحيدًا في ذلك البيت من طابق واحد . بيت متواضع .. لكنى كنت أعرف أن دخله كطبيب من المكان الذى يعمل فيه ليس مجزيًا .. كان هذا المكان يدعى سافارى 7 .. أعتقد أنه من المنظمات الدولية المعروفة . وكان يقضى معظم اليوم هناك .

زيارات ؟ . لم يكن أحد يتردد عليه سوى بعض أصدقاء الطفولة المحليين ، لكنى اندهشت جدًا عندما اعتاد أن يتلقى زيارات من طبيب ملتجٍ يبدو أقرب للعرب فى ملامحه . طبيب يمكن أن يكون مصريًا لو كانت فراستى صحيحة .

يجب أن أعترف أن أناطول لم يكن يميل لى .. كان يعتبرنى جارة طيبة القلب لكنه لم يعتبرنى امرأة على الإطلاق ..

بالفعل اختفى أناطول لفترة ..

لا يمكن أن أحكى التفاصيل حتى لا أتعرض للخطر . يقولون إنه تم

اعتقاله عند الفجر .. لا أعرف التفاصيل .. صحت من النوم لأسمعهم يتكلمون عن الغارة الليلية التي قام بها رجال الشرطة على البيت ..

لم أعرف سبب اعتقاله لكن هناك إشاعات . على كل حال يعرف الجميع أن أباه جنوار كان محامياً شيوعياً معارضاً ، وقد اعتقل في عصر موبوتو . في أيام موبوتو كان معنى الاعتقال أنك تلاشت من على وجه الأرض للأبد . لن تخرج أبداً . ثمة احتمال لا بأس به أنك استخدمت في إطعام التماسيح في نهر الكونغو ، فالمحميات لم تكن موجودة وقتها وإلا لأطعموا به الأسود ..

لا أعتقد أن أناطول كان يملك أى ميول سياسية ولم يكن يهتم بشيء خارج طب الحميات .

ما حدث بعد هذا بأيام كان عسير التفسير .. في الواحدة بعد منتصف الليل سمعت صراخاً .. هزعت إلى الباب وفتحته فوجدت الناس في الشارع يصرخون ، وقد خرجت النساء من بيوتهن حافيات الأقدام ، بينما الرجال يحملون دلاء الماء ..

كانت السنة الذهب تتصاعد للسماء ، والضوء البرتقالي يترقق على الوجوه ..

بيت أناطول يحترق ..

الدخان الرمادى يتصاعد لغنان السماء ، والماء يسيل ليغرق الأرض ..

صاحب البيت ليس موجودًا ليدافع عن بيته أو ممتلكاته الثمينة .. لا أحد يعرف أين يضع ماله أو صور حبيباته أو حتى أمه .. ليس هناك من على استعداد أن يقتحم النيران من أجل لا شيء .. فى النهاية البيت خالٍ من البشر ..

هكذا ظل المشهد عدة ساعات .. فى النهاية انتهى وحش النيران الغاضب من وجبته وشبع .. قرر أن ينام أخيرًا ويغط ..

بالطبع لم تتوصل الشرطة لشيء ...
وساد الحى جو من الكآبة . كل شيء كان رماديًا . ثم انهمرت الأمطار ..

وما لم أعرفه هو أن أناطول كان سيعود بعد يومين ..

★ ★ ★

كان هذا وقت الغروب عندما سمعت الصرخة ..
خرجت من بيتى فوجدت شبخًا متهالكًا يقف بصعوبة وينظر إلى بقايا البيت . كان هذا هو د. أناطول نفسه .. لقد عاد ، ومن الواضح أنه يرى بيته للمرة الأولى منذ احتراقه ..

كان يحسب أنه سيعود ليجد الجدران والذكريات فى مكانها ..

كانت عينه متورمة شبه مغلقة وشفته مشققة كأنما قد نزلت كثيرا ،
ومن الواضح أنه فقد سناً أو سنين ..

دنوت منه ووضعت يدي على كتفه وقلت :

- « لم نستطع عمل شيء يا دكتور .. »

انقبض في عصبية وأبعد يدي عنه ..

- « دكتور أنا جوسلين جارتك ! »

لكنه ازداد عصبية .. كان يقول كلاماً مختلطاً لم أفهم كنهه .. كان
يرتجف . أملك بعض الخبرة الطبية ويمكنني أن أؤكد أنه مصاب بانهيار
عصبي . سقط على ركبتيه وراح يصرخ بالفرنسية :

- « الأوغاد ! ... لقد طفح الكيل ! »

جاء ثلاثة من الجيران وأحاطوا بنا ..

هنا نهض أنا تول ولکم أحدهم ثم ركل الآخر ... إنه سيؤذي نفسه
هذا الأحمق . صحت أطلبهم بأن يمسكوا به ، لكن الهياج جعله
يصرخ .. يقاوم ويضرب ..

الكثرة تغلب الشجاعة ، وقد تعاون الجيران على تقييده ، ثم ظهر
فرانس بالدراجة البخارية العتيقة ، وتعاون مع أحد الرجال على

وضع الطبيب بينهما لنقله إلى المستشفى مستشفى مونكول قريب ومناسب .

كنت أعرف أنني سأعوده هناك مرارا .. ما زلت أحمل له الحب والتقدير .. لن يحبني أبداً لكنه سيظل يضيء في روحي ويمنحني الدفء ..

هكذا رحت أزوره هناك وأحاول التخفيف عنه .. الحقيقة أنني اتخذت دور الزوجة أو الأخت الرعوم معه ، فرحت أجلب له الطعام وأخذ ثيابه لأغسلها ...

ومع الأيام بدا لي أنه يتحسن ، وإن لم يحك لي قط عما حدث لي فترة غيابه ..

عندما خرج شعرت بأن العمل في سافارى سوف يعيد له اتزانته النفسي ..

ثم عرفت أنه أصيب بنوبة هياج وقتل دوسكانيش وقتك بعدة عاملين في الوحدة . هناك جزء مفقود لا أفهمه ولا أستطيع تفسيره .. د. أنا تول يقتل ؟ .. مستحيل ..

ترى ماذا حدث ؟ ما الذي فعله هناك بالضبط ؟

لن أعرف أبداً ...

شهادة د. علاء عبد العظيم (طبيب فى وحدة سافارى 7)

ثم أكن شجاعا . أنا قد قضيت وقتًا لا بأس به مع نفسى ، منذ ولدت حتى اليوم . لهذا أدرك جيدًا أننى شريف طيب القلب ، لكننى لست شجاعا ..

لا تتدهش من كلامى .. هناك أشخاص - بالمعنى الحرفى - لم يجدوا وقتًا كافيًا ليجلسوا مع أنفسهم ويعرفوها . من ضمن هؤلاء أولئك الذين يتزوجون فى سن مبكرة جدًا .. هؤلاء قد لا يعرفون أنفسهم بتاتا .

أقول إننى لست شجاعا ..

لكننى كنت أحب أنا اتول بحق ، وكنت أدرك أنه رجل نظيف ذو مثل عليا وأعصاب منتهبة عارية .. هذا الطراز من الناس ينفجر بسهولة لكن بوسعك أن تحبه بصدق ..

هل لى أن أجلس يا سيدى ؟ أنا مرهق بالفعل ، وأشعر أن هذا كله كابوس طويل .

معذرة لأن لى سئين مهشمتين .. هذا يجعل كلامى عسيرًا كما تعلم ..

أنا جئت إلى الكونغو منذ شهر ونيف .. كانت لى تجربة قاسية نوعًا فى الكامبيرون .. وشعرت بأننى أستحق إجازة . وحدة سافارى -7 فى الكونغو مهمة جدًا وهى قلب أفريقيا فعلاً . صحيح أن هناك كمًا هائلًا من العمل ، لكن الحياة آمنة على قدر علمى ، وأعتقد أننى أحب المدير الكونغولى آرثر برسرين كثيرًا ، فهو رجل مهذب لطيف .. ومساعدته البلجيكية أن ليراي لطيفة .

منذ وصلت هنا وأنا أعمل معظم الوقت فى قسم الحميات . لسبب ما لم يتركونى أذهب إلى قسم الجراحة . لا أشعر بأننى على سجيئى إلا فى قسم الجراحة .

صباح اليوم دخلت إلى عنبر الملاريا ، فقابلتنى الممرضة السويدية (أنجا) وهى شىء بارد كالثلج شديدة السماجة . أنت تعرف يا سيدى أن وحدة سافارى شبيهة ببرج بابل يتكلم الجميع فيه الفرنسية . قلت لى بملامحها الثلجية إن هناك حالة يشتبه فى أنها نزفية ..

هذا خبر خطير .. حمى الكونغو - القرم متوطنة هنا ، وكما يوحى الاسم فهى موجودة فى الكونغو وشبه جزيرة القرم .. أخطر أنواع

الحميات النزفية . يبدو أنه لابد من إبلاغ الإدارة ، وهى ستبلغ وزارة الصحة .

من الغريب أن الممرضة فى ذلك اليوم بالذات طلبت أن نأخذ رأى د. أناطول .. قالت لى إن الرجل بارع فى الحميات وبالتأكيد يعرف حمى القرم بسهولة ..

قلت لها وأنا أغلق أزرار المعطف :

- « هو فى المصحة النفسية .. لا نعرف متى يعود »

اتسعت عيناها ذاتا اللون الفستقى وقالت :

- « لقد عاد . شاهدته هنا اليوم »

كان هذا خبراً رائعاً ، زرته مرة واحدة فى المصحة منذ احترق بيته . بدا لى كأنما تم تجويفه من الداخل . وتذكرت قصيدة الرجال الجوف لت . س . إليوت . هو هيكل خالٍ من المشاعر . يلبس قميصاً أبيض واسع الياقة يكشف عن صدره النحيل ومن الواضح أنه لم يتم كبه منذ أشهر . يمكنك أن ترى صدره المليء بالكدمات والخدوش .

فى تلك الزيارة رأيت جارتة السمراء .. أعتقد ان اسمها جوسلين . كانت قد جلبت له بعض الطعام والفاكهة . يبدو أن قصة حب جديدة تولد هنا بعد قصة سيرين .

قلت له عندما انفردت به :

- « أعرف أن ما حل بك قاس .. لا أعرف كل التفاصيل المستجدة .
لكننا لا نتفقت إلا إذا أردنا ذلك يا أباتول .. أنت أقوى من هذا .. »

كان يرفض تمامًا الكلام عن فترة اعتقاله . هذا سلوك اعتدته مع
من يلقون تعذيبًا مهينًا يذهب بالعقل . يتم تسويد هذه الحقبة من ذاكرتك
تمامًا . أو لو لم يتم تسويدها يرفض المريض الكلام عنها .

قلت له ما قاله عبد الهادى لأبى سويلم فى الأرض :

- « لم تكن تلك شجاعة ممن ضربك ولا جبنًا منك »

نظر لى طويلًا ثم انفجر فى البكاء . وهتف :

- « أنت لا تعرف كل شيء .. »

كان هذا كافيًا لى كى أخرس .

طلب منى ألا أزوره . لا داعى لذلك . جوسلين تقوم بكل شيء
يريده وتطعمه وتغسل ثيابه .. لا داعى أن أقلق . عرفت أنها رغبة
مقدسة يجب أن أطيعها .

الآن تخبرنى الممرضة السويدية السمجة أنه عاد إلى الوحدة .

قلت لها :

- « سوف أذهب كى »

فجأة سمعت صوت طلقات بندقية آلية . هزعت بلا حذر إلى النافذة
وفتحتها فصاح صائح من الطابق السفلى : احترس ... إنه يطلق
الرصاص في الهواء ... !!

وكأنما هو تأكيد لكلامه اصطدمت طلقة بخصاص النافذة التي
فتحتها ، فارتفعت أرضاً تحت النافذة ..

من باب العنبر جاءت ممرضة مذعورة ... صاحت فينا :
- « تواروا ! ... دكتور أناطول قد جن !! »

أصابني الذهول فسألتها عن نوع الجنون . قالت :
- « يطلق الرصاص على الجميع .. معه بندقية آلية سرقها من
جندي »

أموك لحظة الجنون الفعلى الذى يجعل أحدهم يطلق
الرصاص على رفاقه فى العمل فى وقت واحد .. هناك قتل جماعى
Mass murder و قتل لأشخاص متباعدين فى نفس الوقت
Spree murder ... لماذا يفعل هذا ؟ هل كان الضغط العصبى قويا
لهذه الدرجة ؟

صوت الطلقات يدوى والمكان يرتج ..
شعرت بأنتى متوم مقاطيسيا ..

كان قد دخل غرفة الاتصالات .. وسمعت صوت طلقات . لابد أنه قتل الموظفين الجائسين . رائحة البارود والدخان غير الودودة . قلت لنفسى : لن يقتلنى ... أنا أقرب أصدقائه له .. إنه صديقى .. لن يقتل أبرياء آخرين . بدت لى فكرة جئشى على الأرض غارقة فى الدم وقد تحولت لبطاقة حاسب مثقبة ، ويكون فاعل هذا هو هذا الطبيب الهادئ . بدت لى فكرة سخيفة غير معقولة الحدوث . شعرت بما يشعر به مدرب الأسود عندما يفر أسده الحبيب ويمزق الناس . عندها يدنو هو منه ، لأنه لا يتصور أن يمزقه الأسد صديقه هو بالذات . ما زلت أشعر أنتى كنت على حق .

هكذا دخلت إلى غرفة الاتصالات فى تودة وحذر ، وبصوت حاولت جعله مهدئا قلت :

« د. أنا تول .. أرجوك أن تلقى بهذا السلاح ! »

لسبب ما وجدتتى أتكلم بصيغة رسمية برغم أننا صديقان جدا .. لم يقتلنى كما توقعت .. فقط قال :

« ابتعد عني يا دكتور عظيم .. لا أحب أن أرى جثتك »

لنفس الأسباب الغامضة يتكلم بهذه الصيغة الرسمية ، مع أنه ينادينى فى العادة بـ (علاء) .

- « أنت لن تقتلنى .. أعرف هذا .. لكنى كذلك أكره أن أرى جثتك

الممزقة »

صرخ أنا تول :

- « أنا قد تجاوزت فرصة الخلاص .. انتهى أمرى .. لابد أننى قتلت

عشرة على الأقل بعد هذا الكلب .. »

ثم استند إلى الجدار وراح يبكى .. كانت البندقية فى وضع ممتاز
غير مصوبة لى ، وبعيدة عن يده نوعاً . ربما لا توجد فرصة
أخرى ..

وثبت على البندقية محاولاً سرقتها ، لكنه كان قوياً ..

تمسك بها بعنف . وارتمينا على الأرض .. كنت أحاول أن أخذها
منه دون أن يطلق الرصاص لكنه وجه لى لكمة قوية فسقطت على
ركبتى . هنا هوى بمؤخرة البندقية على مؤخرة رأسى فكاد يهشمه
والمحطات غصت فى الظلام ..

خرج يجرى فى الممر ، ثم سمعت صوت الطلقات تنهمر .. هذه المرة
هى طلقات واثقة مدربة ، تختلف عن طلقاته المترددة الخجول ..
هذه هى القوات المسلحة .. لا شك فى هذا ..

حاولت النهوض جاهاً .. أنا منتهك .. لا شك أن هذا هو ما بعد
الارتجاج .. سوف أفرغ معدتي حالاً أو أفقد وعيي ثانية . لكني كنت قد
خمنت ما حدث .. المر كله تحول لدخان وبارود وصخب ..

لم أدرك أنني أبكي إلا عندما سمعت صوت أنيني .

لقد تعرض أنا لتول لضغوط هائلة حتى يقتل زملاؤه بهذا التوحش ،
ولكن ما السبب ؟

لا أملك الجواب اليقين يا سيدي ، وأعتقد أن باقي الشهود يمكن أن
يقدموا لكم معلومات أكثر . أنت تعرف قصة العميان مع الفيل وكيف
قال بعضهم إنه خرطوم طويل وقال البعض إنه يشبه المروحة وقال
البعض إنه منشأة وقال البعض إنه أربعة أعمدة . كلهم كانوا صادقين
لأنك تحتاج لشخص مبصر كي يعطيك الصورة النهائية .

أعتقد أن من سيجمع كل خيوط التحقيق قادر على أن يعطيك الجواب
اليقين .

على فكرة أجريت الفحص الإشعاعي وتبين أنه لا كسور في
جمجمتي .. هذه أنباء طيبة وسط هذا السواد .

شهادة د. شارل صيجريه

(من صندوق الحفاظ على الأجناس المهددة)

المرض الزائيري .. Le mal Zairois ..

هذا هو الاسم الذي كان موبوتو الدكتاتور يطلقه على الفساد المتفشى في زائير - الكونغو قبل أن يغير اسمها - وبرغم هذا كان في حاجة ماسة إلى هذا الفساد . حسب بعض التقارير ، هو قد اختلس من دخل البلاد خمسة مليارات دولار لنفسه ، ثم إنه كان محتاجاً لإطعام كل أفواه القاسدين من حوله وكل الجنرالات في كاتانجا . اعتقد أنه لم ينس منظر لومومبا العقيد المتجه للرعى بالرصاص . ثم يكن يريد أن ينتهى به الأمر كذلك . لابد من شراء ولاء هذه الكلاب المسعورة .

اعتقد موبوتو أنه تخلص من سيطرة الاستعمار ، عندما تخلص من اسم الكونغو الوارد في كتب الجغرافيا الغربية ، واستبدل به اسم زائير . الحقيقة أن زائير نفسها تحريف برتغالى للفظه (نزير) أى النهر الذى يبتلع كل الأنهار . ليوبونديفيل صارت كينشاسا .. ألبرتفيل صارت كاليمى ..

لم تكن هذه هى المشكلة . استقلال أسماء وعلم جديد .. لكن فى النهاية تبقى حقيقة أن الاستعمار الغربى رحل ، ليبدأ استعمار

وطنى .. ويعود الاستعمار الغربى فى صورة احتكارات وشركات .
من لم يلعب اللعبة بقواعدها وجد نفس واقفاً أمام طيور الإعدام كما
فعل لومومبا ..

رحل موبوتو عام 1997 عندما انقلب عليه لوران كابيلا ، وعاد
للبلد اسم الكونغو من جديد ، لكن المشاكل مستمرة ..

لم يطالب أحد البتوك السويسرية بأموال موبوتو التى نهبها ، وهكذا
بعد أعوام قضت المحاكم السويسرية بأحقية أسرة موبوتو فى ملياراته
فى المصارف السويسرية ..

كعادة أفريقيا تظل الحروب الأهلية لعنة دائمة ..

فى هذه المنطقة كانت حروب التوتسى واليهوتو دائمة الاشتعال .
زائير كانت تساند المتمردين الهوتو من رواندا ، وهكذا كانت فى حالة
حرب دائمة مع رواندا وأوغنده ..

عام 2001 تم اغتيال لوران كابيلا لياتى ابنه جوزيف كابيلا ..
وسط هذه الظروف وكل هذا الفساد ، كان متوقعاً أن تتدهور الحياة
البرية تماماً ..

الناس كانوا يقتلون الغوريلات من أجل لحومها أو لبيعوا أيديها
المبتورة كمطفأة سجائر . الناس كانوا يصطادون الأسود وبدأت أرقام

الحيوانات البرية تهبط بشكل مروع . إنه الفقر والجوع ، دعك من أن كل حراس المحميات هجروا وظائفهم وانضموا للجنود .. هنا أجور عالية وحياة المغامرة ..

معظم أجناس الحيوانات فى هذا البلد فاحش الثراء قد بدأت تدخل قائمة الأجناس المهددة .

أنا بلجيكى متخصص فى الحياة البرية ، ولهذا الفرض أرسلتنى اليونسكو إلى الكونغو عام 1999 ومعى فريق مهمته الحفاظ على الحياة البرية بالتنسيق مع الحكومة ، وقد قصدنا (جوما) لتكون بداية العمليات ، لكننا لم نجد حكومة .. لم نجد شيئاً على الإطلاق ..

لا شيء سوى الجثث الممزقة مبتورة الأطراف والأكواخ المحترقة .. متوسط القتلى كان أربعين ألفاً كل شهر ، وقد قدر ضحايا النزاعات بمليون إلى خمسة ملايين ١١

لا يمكن وسط كل هذه الدماء أن تقول إنك قلق على الغوريلا .. سوف يقتلونك ..

والمرأة التى جاءت من بعيد تركض . هل كانت تعرف ما سيحدث ؟

في هذه الظروف المضطربة تعرفت على الطبيب الكونغولي أناطول جنوار. كان في العقد الرابع من عمره وقتها. لقد تطوع في هذه الظروف القاسية لأنه يعرف أن أهل بلده يموتون. كان أبوه محامياً شيوعياً اعتقل واختفى في عصر موبوتو .. كل الناس اختفوا في عصر موبوتو ..

هناك كنا نكمن في معسكرنا بينما تدوى الانفجارات والطلقات .. ضمن صراع لا ينتهي بين التوتسي والهوتو. لو كنت قد رأيت الفيلم الرابع (فندق رواندا - 2004) فأنت تعرف عما أتكلم. لسبب ما يرفض الناس أن يوجد آخرون لا يدون مثلهم ولا يفكرون مثلهم .. لابد من رفض الآخر .. الكاثوليك والبروتستانت .. المسلمون والمسيحيون .. السنة والشيعة .. التوتسي والهوتو .. البيض والسود .. ولو تساوى الناس جميعاً لبدأت الحروب العرقية بين طوالب القامة وقصارها .. مستحيل أن تعرف التوتسي من الهوتو .. وفي كل مرة يعتبر أحد الطرفين أن يوسع بعض الجهد أن يببذ الطرف الآخر، وهو شيء مستحيل ..

على الصوم كان شرق الكونغو يشهد نزوحاً هائلاً للهوتو الفارين من رواندا ..

من وقت لآخر ترى عربية جيب يركبها جنود سود مسلحون يلوحون لنا محيين في زهو القوة ، ثم ترى عربية أخرى قادمة من الاتجاه الآخر ومن الواضح أنهم ذبحوا المجموعة الأولى . الكل فخور جدًا بالسلاح الذي يملكه ، وما من أحد يدرك أنه يطلق الرصاص على نفسه ، وأن المستفيد الوحيد من هذا الدم هو تجار السلاح .

كنت ترى القرى وقد تحولت إلى شعلة نار والدخان الأسود يتصاعد للسماء ، بينما تحلق مروحيات سلاح الجو الكونغولي قندفن رءوسنا وسط الأعشاب ..

أنت تعرف أنك تتلقى طيلة الوقت لدغات ذبابة تسمى تسي التي تنتقل مرض النوم .. تعرف أن هناك ملاريا وحمى صفراء و .. و لكن يظل الخطر الأكبر هو الإنسان نفسه .. هو أخطر من أي فيروس أو بكتيريا ...

كان أنا تول يقول لى وهو يبصق :

- « هل تتصور أننا ثانی أعلى دول العالم فی وفيات الرضع ! »

- « والدولة المحظوظة الأولى ؟ »

- « تشاد طبعًا »

قلت له فی صبر :

- « لابد أن تكون هناك دولة تعسة الحظ »

قال في غيظ :

- « ليست دولة بهذا الثراء الفاحش .. دولة تملك معظم يورانيوم وبوكسيت العالم ، وفيها أغنى حياة برية على ظهر الأرض . لقد استولت دولتك بلجيكا على كل شيء لدينا ومنعتنا من استغلال ما بقي »

قلت ضاحكاً :

- « لا ذنب لي .. ثقي أنني لو صرت رئيس وزراء بلجيكا ، فسوف أعيد لكم حقوقكم فوراً »

كنا نتردد على القرية المجاورة كثيراً ، وقد انعقدت صداقة بين أتانول وصبي في السابعة قام بخياطة جرح في ركبته . كان الصبي يأتينا كثيراً في معسكرنا ليجنب لنا الماء أو الموز .. وأحياناً كنا نلعب كرة القدم ، فأقف أنا كحارس مرمى ، بينما يلعب هو وأتانول دوري المهاجمين .. اللعب مع الأفارقة شبه مستحيل ، لأن لياقتهم وسرعتهم مذهلة .

اسمه جيلداس . له ضحكة فاتنة تظهر أسنانه كلها .. لا بد أن تقع في حبه ، وكان يتحدث باللغة السواحلية .. أتانول يجيد الفرنسية والسواحلية كما أن اختلاطه برجال الجيش قد علمه لغة لينجالا . لا

تنس أن هناك 242 لغة في هذا البلد ! .. من أغرب الحقائق أن البلجيكيين كانوا يرغبون المواطنين على استعمال اللغات المحلية .. فلما رحلوا صارت الفرنسية هي اللغة الشائعة لدى الجميع !

قال لى أناتول وهو يقضم الموز :

- « يومًا ما سأتزوج فتاة طيبة ، وسوف تعطينى طفلًا خفيف الدم مثل جيلداس . لكن المشكلة هي أن تاريخي مع الأمن أسود .. سأصيب الصبى بعدوى خلقية من سوء السمعة الأمنية ، كما تنقل الأم الإيدز لطفلها ! »

ضحكت كثيرًا .. ورحنا نراقب الدخان المتصاعد في عنان السماء .

كان أناتول شاعرًا وقد قرأ على مقاطع من الشعر الفرنسي الرديء الذي كتبه . لم أجروا على إخباره بأن هذا شعر ساذج ، لكن أناتول نفسه كان قصيدة بلا شك .. أبلغ من كل شعر قام بتأليفه .

قلت له إننى سأعود مع رجالى فلا شيء يمكن عمله هنا . من دون استقرار سياسى لا يمكن الكلام عن عدد الأسود والوعول ..

قال فى هم :

- « وهل تتوقع استقرارًا فى أى مكان من أفريقيا ؟ »

« ما أعرفه يقينًا هو أنني لن أقدم خدمة للأجناس المنقرضة لو هلكت »

المرأة التي جاءت من بعيد تركض . هل كانت تعرف ؟

★ ★ ★

هناك تحت الخيام كان يضمّد جراح بعض الجنود .. معه طاقم تمريض من الرجال ؛ لأن من الخطر أن تجلب أنثى لعرين الضباع هذا ...

الجندي يصرخ ويضرب أناطول بقبضته ، لكن هذا لا يتراجع .. يواصل اعتصار الصديد من الجرح .

هنا ظهرت تلك المرأة العافية ممزقة الثياب .. كانت تصرخ في جنون وهي تركض كاشفة عن أسنانها التي تساقط معظمها بفعل نقص الكالسيوم وسوء التغذية . الدم ينزف من أنفها وواضح أنها تلقت علفة ساخنة كما أن هناك جرحًا قبيحًا في صدرها ..

كانت تصرخ :

« إنهم اقتحموا القرية ... يقتلون الجميع ! »

هناك دائمًا قرية يتم اقتحامها وتحترق .. ويتم قتل أطفالها بالسنجة ، حتى لا يكبروا ويصيروا من الجنس المعادي ..

تبادلت وأناطول نظرة واحدة ، ثم جرينا نحو القرية ونحن نسمع صوت إطلاق الرصاص . لن يؤذونا .. كل الجنود يعرفون أننا نساعدهم ونضمد جراحهم ، وأنا مدنيون لا نقاتل ..

كانت الأكواخ الحفيرة تشتعل .. وأينا الجثث المتناثرة .. بعضها مزقته طلقة وبعضها مزقه سكين .. ومن بعيد ترى الجنود ينجزون مهمتهم الخلاقة في قتل الأربعين ألف كونغولي لهذا الشهر .

صاح أناطول وهو يتقدمنى :

- « أين جيلداس ؟ »

كنت أتوقع إجابة شنيعة .. سوف نجده بالتأكيد لكنه لن يضحك .. لن يتحرك ... سيكون كتلة لحم ممزقة .

فجأة برز لنا الصبي من داخل كوخ مشتعل .. كان يصرخ مذعورا ومن خلفه كان جندي غليظ أسود أصلع الرأس يلوح بسونكى بندقية وهو يضحك كاشفا عن أسنان من عاج ..

لا بد أن الجندي فتك بالأسرة كلها ..

صحت أنا بالفرنسية :

- « لا تخف يا جيلداس .. سوف ننقذك ! »

توقف أناطول ومد ذراعيه جانبا كأنه يتوازن على جذع شجرة ..

راح يقول شيئاً بلغة اللينجالا وهو يشير لى .. يمكن فهم القصة على كل حال : نحن صديقان .. أنا كونغولى وهو بلجيكي .. نحن نخدم الجرحى . لا تؤذ هذا الطفل يا أخى .. أرجوك ..

للحظة بدا أن الجندى بدأ يلين ..

احتضن الصبي إلى بطنه فى شيء من الحنان ، فهدأت نفوسنا ..

هنا مرر السونكى تحت عنق الصبي مرة واحدة ، ورأينا الصبي يتداعى ليسقط أرضاً بينما انفجر الجندى ضحكاً .. بدت له هذه دعاية أظرف مما يمكن وصفه .. هاهاهاهاهاه ..

- « لا !!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!! »

الفارق لحظة بين طفل حى مذخور وبين جثة قُطع حلقومها .. كان من الممكن أن ينجو من ريع ثانية .

وثب أناتول على الأرض وزحف كالكلب نحو الصبي ، واحتضنه لصدره .. معطفه الأبيض صار بلون الدم كله . فضحك الجندى ووجهه رككة لخصر الطبيب ليسقط أرضاً .. ثم نظر لى ولوّح بإصبعه فى وجهى : يان ا .. كأنه يطلق الرصاص ..

وسرعان ما ظهر الجنود من كل مكان يضحكون ولحقوا

بزميلهم . بعضهم كان يعيد ارتداء السروال مما يدل على أنهم لم يكونوا يمارسون القتل فحسب .

نظروا لنا وتجاهلونا فقد أدركوا أننا بلا خطر وأتوا أطباء أو شيء من هذا القبيل .. فقط كان أناطول على الأرض يبكي كالتساء ..

عندما جاء المساء كان هناك ضوء باقٍ من اللهب .. لم تحترق الأكواخ كلها ، وجاء من بقى حيًا ليدفن أقاربه .. من الصعب أن تعرف الهوتو من التوتسى .. بكاء وعويل ونظم خدين ..

قمنا بدفن الصبى تحت شجرة جوار القرية ، وعرفنا أنه كاثوليكي فغرس أناطول صليبًا خشبيًا صغيرًا على قبره ..

لم يتكلم أناطول لمدة يومين بعدها ..

لا شك أن هذا المشهد قد أحدث ندبة هائلة فى روحينا ، ودعنىؤكد لك يا سيدى أننى لو وجدت بندقية لأفرغتها فى ذلك الجندى ثم تلذذت برمى جثته للكلاب ..

أنا أفهم أن يولد العنف فى نفس المرء من مشاهد كهذه . لكن لا أفهم لماذا يفتك المرء بأصدقائه وزملائه الأبرياء ؟

إن فى حياة أناطول لغزًا يا سيدى ..

والمرأة التى جاءت من بعيد تركض . هل كانت تعرف ؟

شهادة إيمانويل جوليمي (جار سيرين)

لا أعرف يا سيدي إن كان لدى ما أقونه ..

أنا أكره أن يأخذ أحد شهادتي في هذه الأمور . حتى لو وعدتني بالحماية فأنت لا تستطيع حماية شخص للأبد . لا بد أن تغفو أو تغفل ، وعندها ينتقمون مني ..

ليس لدى الكثير مما يقال كما قلت لك ..

(سيرين دراش) كانت تعيش في هذا الحي مع أسرته . أسرة فقيرة هي .. كنا فقراء كما تعلم . كانت سيرين فتاة رقيقة تعمل معلمة في المدرسة الابتدائية القريبة من هنا . كنت أراها عندما ينتهي اليوم وهي تخرج من المدرسة وقد ضمت دفترها إلى صدرها وأسكت بيد طفلة سوداء صغيرة منكرشة الشعر .. الطفلة تمسك بيد زميلتها .. وزميلتها تمسك بيد زميلها . هكذا طابور طويل من الدجاج يمشي وراء سيرين .

تعبير الطريق ثم تقف على الرصيف تنتظر قدوم الأمهات لتأخذ كل واحدة دجاجتها .

لا أعرف إن كانت سيرين جميلة .. أحبهن بدينات بتواشب كل جزء منهن في اتجاه . وأشعر مع هذا الطراز من الفتيات الناحلات أنهن مريضات أو مصابات بعاة ما . لماذا تسمح امرأة بنفسها ألا تكون مكتنزة بدينة ؟ . لكن ما أستطيع قوله هو أن شبانا كثيرين كانوا معجبين بها . ومنهم دوسكانيش بالطبع . طبقاً لهذا فلا بد أنها حسناء وأنا حمار

ثم يصل د . أنا تول . إنه يعرف طريقه ..

هذه المدرسة التحيلة الحسنة . والطبيب الوسيم الذى يحمل بعض علامات (التشريط) القبلى على خديه . وهى علامة محببة عندنا كما تعلم لا بد أنه مفخرة قبيلته .. نحيل .. أسود .. له نظرة رقيقة حزينة .. يلبس قميصاً أبيض واسعاً قصير الأكمام يقيه خارج البنطال . صحيح أن فارق السن بينهما كبير فعلاً . لكن من الواضح أن هذا حب عابر للمسافات والسنين ..

تتشابك اليدان معاً ويمشى معها . ينظران للأرض ويتكلمان .

أنا رجل متقدم فى العمر . تعلمت أن الحياة برميل من القذارة ولا يوجد أمل على الإطلاق . لهذا كنت أحب هذا المشهد كثيراً . يسعدنى أن أرى الحمقى يعيشون حياتهم .. كما يحب الكبار أن يروا سذاجة الأطفال وهم يلهون . إنها تتعشهم برغم كل شيء .

يوصلها لباب دارها ، حيث تجلس أمها العجوز سولونجا على عتبة
الدار تقطع الكسافا .

تتناكأ من حولهما الدجاجات وتتصايح .. فتدفعها سيرين دفعا رقيقا
يحدانها .. يحيى الأم العجوز ثم ينسحب فى رشاقة ..

تلك قصة حب وليدة ..

تذكرنى كثيرا بزوجتى عندما كانت جميلة منذ ثلاثين عاما ، وعندما
كنت أنتحل الأعذار لأذهب لها . لم أعش طويلا .. قتلت بالرصاص فى
إحدى العروب المستعرة فى بلادنا بلا توقف ، وقد تركت أنا قريتى
وجئت إلى كينشاسا مع طفلى . العاصمة أكثر أمنا لحد ما .. فى الريف
يمكن أن يحدث أى شيء بلا شهود أو عقاب أو اهتمام من أحد

قصة حب أناطول تذكرنى بهذا المشهد كثيرا . كنت قد وصلت لحقيقة
لا شك فيها : سوف يفترقان ويشعران بالنعاسة .. كل قصص الحب
تنتهى لهذه الطريقة ..

لكن ما حدث كان قاسيا يفوق ما توقعت ..

السيارة العسكرية التى توقفت ذات يوم وقذفوا منها شيئا عند قمة
الشارع . ثم أدير ما هو لكن أطفال المدرسة ركضوا وأحاطوا بالشيء
ثم تصايحوا فى رعب :

- « هذه الآنسة سيرين ! »

دارت السيارة دورة في المنطقة كأنها ترهب الجيران حتى لا يتدخلوا ثم اندفعت وسط بركة من أوحال المجارى فتطاير الرذاذ في كل مكان . وعندما ابتعدت أخيراً هرعنا نحو سيرين ..

كانت هناك على الأرض وسط الوحل ممزقة الثياب .. وقد تلتطخ وجهها بالدم وامتلاً بالكدمات .. كانت القصة واضحة . لكن لماذا ؟ لماذا فعل بها رجال الشرطة هذا ؟ الشرطة الكونغولية فاسدة لكنها لا تخطف المدرسات ..

كانت تبكى بلا توقف ..

هرعت مع جيرانى نحملها إلى دارها ، ورات أمها المشهد فأصببت بشيء من الخبال .. لم تعد قادرة على التعاون أو قول شيء .. تحولت إلى عجيبة مذهولة ..

كانت الفتاة تردد بلا توقف :

- « أنا لن أرفض ثانية يا سيدى .. لا تؤذنى أرجوك ! »

ثم تصرخ وتصرخ :

- « السيد دوسكانيش !! »

صار بوسعى أن أخمن ما حدث .. دوسكانيش فى الموضوع .

راحت امرأة تغسل وجه المعلمة الشابة من الدم ، وجاءت امرأة

أخرى تسقيها مزيجاً من اللبن والماء . وسرت إحداهن جسدها
بملاءة . ذهبت أنا أبحث عن طبيب يراها . بالطبع أعرف بيت د . أناطول
لكني لن أجد هنا وإلا جئ . لا أضمن رد قطه .

جاء طبيب أصلع الرأس يلهث من البدانة وفحصها . ثم قال إنها
تعرضت لمعاملة عنيفة وحشية . قام بخياطة جروحها وحققها بمهدئ
للتام ، وإن قال إنها ستحتاج لوقت طويل كي تشفى من الصدمة
العصبية ..

لا داعي للقول إننا تكفلنا بعلاجها ورعاية أمها يا سيدي . نحن قوم
فقراء لكننا طيبو القلب

★ ★ ★

ما أقلقني هو مصير د . أناطول .

لقد اختلفي من الصورة تماماً ، وعرفت أنه مخنّب .. قيل كلام عن
كونه معتقلاً .. لا أعرف مدى صحته ، لكن اختفائه بعيداً عن سيرين
كل هذا الوقت لا يدل إلا على أنه سجين أو مريض أو مقتول ..

مرت أيام . وبدأ لي أن الفتاة لا تتحسن ..

ولدت تلك الليلة مع قرص الشمس ينحدر خلف نطاق البيوت ،
وكان الصبية يلعبون وسط أكرام القمامة بينما الكلاب تتبادل النباح .

جلست أنا على عتبة الدار أدخن وأتذكر زوجتى .. كانت حياة طويلة مرهقة من دونها، ولعل فكرة أن موعد اللقاء قد اقرب تريحنى ..

هنا رأيت ذلك الشيخ قادمًا من بعيد ..

كان يعرج قليلاً .. ويبدو أن يده لا تتحرك بسهولة .

أدركت من مشيته وهينته الخارجية أنه د . أناطول نفسه . كان قادمًا وهو يجزر رجلًا ويجذب أخرى .. لم يكن فى حال طيبة . نهضت وهرعت لألقاه ، فوجدت أن عينه شبه مغلقة شأن من تلقى لكمة قوية فيها ، كما أن شفته السفلى مشقوقة لشطرين . قميصه ممزق ..

يسهل أن تدرك أنه عومل نفس المعاملة التى تلقننها سيرين ، لكنهم أطلقوا سراحها أما هو فظل فى ضيافتهم فترة . هذا الذى حول معصمه حرق أقطاب كهربية فعلاً .

كان يتجه لبيت سيرين فجريت مسرعًا أسد الطريق أمامه وهتفت :

- « عودة طيبة يا دكتور ... لكن دعنى أخبرك أن آنسة سيرين تتعافى .. إن حالتها أفضل ... »

نظر لى وفى توحش قال :

- « تتعافى ؟ »

- « نعم .. أخذوها لفترة ثم أعادوها ... لا شيء .. هي صدمة عصبية وكدمات .. لا أكثر ... »

- « كدمات ؟ »

- « لقد اعتنينا بها .. كل انحنى اعتنى بها .. نحن نتعامل كأ أسرة واحدة هنا و ... »

- « أسرة ؟ »

ثم مد يده فى جيبى فى صدر قبصى فانتزع عليه التبغ .. أخرج لفاقة دسها بين شفتيه فأشعلتها له يعود ثقاب ويد ترتجف . قال فى شرود والدخان يخرج من داخله كأن حريقاً فى رنته :

- « أنا لم أعد لدارى بعد .. جئت لأراها على الفور .. لم أعرف .. لم أعرف .. »

ثم ابتعد عنى متجهاً لدارها ... دق الباب فانفتح .. طوح بلفاقة التبغ التى لم يسحب منها سوى نفسين . واندفع للداخل .. بعد قليل سمعت صرخة مدوية ارتج لها الشارع :

- « دو سكانيش !! »

ثم انفتح الباب وخرج وهو يرتجف . كن ييكى ...

قلت له إن الأمور تحت السيطرة وإن عليه أن يهدأ قليلاً ، لكنه لم يصغ لي .. نظر لي بعينين لا تريان ، ثم إنه ابتعد متجهاً لبيته .. رأى الشيطان في عينيه ، فأدركت أنه ذاهب للقتل .. سيجلب سلاحاً بلا شك وليس بوسعي منعه ..

ما عرفته بعد ذلك هو أنه لم يفعل .. ثم يجد العقل الكافي لذلك ..

لقد وجد داره محترقة وقد صارت رماداً .. أصيب يانهيار عصبي ونقل إلى مستشفى مونكول في كينشاسا ..

بعد هذا لا أعرف عنه أي شيء .. أما عن موضوع الهجوم وإطلاق الرصاص فبصراحة لا أقبل فكرة أن يفعل هذا .. لا أصدق .. هذا فتر وديع كالأرانب ..

لا بد أن الضغط العصبي قد أحرق كل منصهرات روحه ...
لا بد أنه جُنَّ يا سيدى ...

شهادة كريست جولى (صاحب متجر وجار د. أناتول)

أنا كنت هناك يا سيدى فى أكتوبر 1974 .. كنت فى الثالثة والعشرين من عمرى .. لا أجيد الحساب لذا يمكنك أن تستنتج سنّى ..

كانت كينشاسا كلها ملتفة بالحماصة ، لأن مباراة العصر كانت ستقام فيها ، كانوا يطلقون على هذه المباراة اسم (هدير فى الغابة) .. من زال قلبى يرتجف كلما سمعت أغنية (فى زائير) التى تحكى عن هذه المباراة الرهيبة(*) .

سيد الملاكمين وبطل العالم الذى لا يفهر محمد على كلاى ، يواجه الداية كاسحة القوة بطل العالم الجديد جورج فورمان ...

لقد هزم فورمان كلاى قبل هذا وصمم هذا الأخير على الانتقام .. كان اسم ذلك الإستاد (العشرون من مايو) وهو الذى صار اسمه (تاتا رافاييل) بعد رحيل موبوتو ..

رباه ! .. كانت هذه مباراة القرن العشرين بحق !!

★ ★ ★

<https://www.youtube.com/watch?v=vbYwBy7DbXE> *

و ابحث عن اسم الأغنية Zare In للمطرب Johnny Wakelin

على .. يوماييه !... على يوماييه !!

(اسحقه يا على !.. اسحقه !)

★ ★ ★

ولدت المباراة كفكرة . عندما عرض منظم المباراة خمسة ملايين دولار على كلاي وفورمان من أجل المواجهة . كان هذا العرض عرضاً في الهواء بلا سيولة مادية حقيقية .. أى أنه كان يبيع وعوداً ، لكن دكتاتور الكونغو موبوتو سيسيكو تحمس للفكرة ووعد بتمويلها بشرط أن تتم المباراة على أرضه .

الرمز الواضح هنا هو أن هذين أفريقيان أمريكيان يتواجهان في قلب القارة الأم .. إنهما وسط قومهما برغم خلافاتهما ...

هذا صار عيداً أفريقيًا كاملاً . تزامن هذا مع قدوم نخبة من المطربين والفنانين منهم جيمس براون وبى بى كينج وميريام ماكيا . جاءوا كلهم لتعيش البلاد أجواء شبيهة بالحلم .. أقيم حفل غنائى استمر ثلاثة أيام اسمه زانير 74 ..

لقد قضى الملاكمان فترة طويلة جدًا من التدريب في بلادنا . واضح أنهما كانا يتأقلمان على طقسنا الحار . فيما بعد جرح فورمان في

التدريب فتم تأجيل المباراة إلى أكتوبر بعد ما كان سبتمبر موعدها . وكانت صورتها في كل وسائل الإعلام وعلى كل الصحف ... لقد دعا العالم نفسه مهرجان على أرضنا . مهرجان رياضى غنائى وراقص .

لكن الحقيقة التى كانوا يتجاهلونها هى أنهم إذ يمشون فى الأستاذ مع موبوتو ، فقد كانت الأقبية تحت الأستاذ تعج بسجناء الرأى اذنين لن يروا النور ثانية أبداً . عندما كان جيمس براون يغنى كانت تماسيح نهر زائير - الكونغو - تتناول وجبة العشاء من المعارضين .

★ ★ ★

على .. بوماييه !... على بوماييه !!

(اسحقه يا على ! ! اسحقه !)

★ ★ ★

كان فورمان مغتاضاً من حماسة الجماهير لعلى كلاى . وقد قال للصحافة أكثر من مرة :

« لو كان التعصب بسبب الدين فأنا مسيحي مثلهم ، ولو كان التعصب بسبب اللون فأنا أكثر سواداً من كلاى ! »

لكن السبب معروف .. إن الناس وقعوا فى جاذبية الشخصية الكاريزمية لكلاى ، وجعجعتهم وتفاخروه الدائم .. لا أحد يقلت من سحر كلاى أبداً ، وبعد أعوام اعترف فورمان أنه لم يحب فى حياته شخصاً

مثل كلاى .. إنه إنسان رانع قبل أن يكون ملاكاً .. ولعل فورمان كان صديقه الوحيد فى أيامه الأخيرة التعسة مع داء باركنسون .

منذ وصل كلاى للكونغو وهو لم يكف عن امتداح السود وتدليلهم ، وكان يقول فى قمرة قيادة الطائرة :

- « هل ترى ؟ أفارقة يجيدون قيادة الطائرة .. كلهم هنا يجيدون الإنجليزية والفرنسية بالإضافة للغةهم القبلية الأصلية . بينما نحن الأمريكان لا نتكلم إلا الإنجليزية ونتكلمها خطأ ، وبرغم هذا نسخر من الأفارقة ! »

بدأت المباراة فى الرابعة صباحاً بتوقيت كينشاسا . هذا الموعد الغريب سببه أن هذا وقت المشاهدة المناسب للمشاهد الأمريكى .

سر قوة كلاى هو مراوغته وخفة حركته التى ترهق خصمه .. إنه يحوم حول الخصم كالذبابة . ولو تلقى ضربة واحدة قوية من فورمان لكانت نهايته . كان فورمان هو الأقوى وهو الأكثر شباباً .. عشر سنوات بين الرجلين تلعب دوراً مهماً فى الملاكمة ..

لكن كلاى استطاع أن يسيطر وأن يهزم فورمان بالضربة القاضية ويستعيد لقبه .. لقبه الذى سيقطع معه إلى أن يهزمه سبينكس ثم لارى هولمز .. ثم داء باركنسون الويل ..

أنا كنت هناك يا سيدى فى الإستاد فى أكتوبر 1974 .. كنت صغيرا عاشقا للحياة ، وقد رأيت مباراة جميلة بين رجلين قويين ، لكننا لم ننس اللحظة أننا ونحن ننعم بالرياضة وبغناء جيمس براون ، كان الكونغو فى الخارج غابة كثيفة من الفقر والحروب الأهلية والاحتكارات .

هذا مخدر بسيط أراد به مويوتو أن ينومنا وينوم العالم ، وأعتقد أنه قد نجح ..

كان دكتور أناتول فى الثامنة من عمره وقتها ، ولا أعتقد أنه يتذكر أى شيء . فقط فرحة الأطفال بمباريات الملاكمة ، وكانت أمه قد قررت أن تعمل خادمة فى بيوت السادة الأثرياء بعد ما اختفى زوجها فى السجون .

كانت ذكرى جميلة ، وقد تركت علامة لدى كل مواطن كونغولى برغم أن هذا المهرجان كللنا الكثير جدًا .

شهادة ويليام بيجيلي ريفوى (رجل شرطة)

دوسكاتيش كان واسع النفوذ يا سيدى ..

هو ليس قرنا فى الحكومة ، وليس ثريا .. هو مجرد رجل شرطة مرتشٍ يتمتع بصلاحيات قوية ، ويفرض إتاوات على كل الباعة . عندما يطلب قفصا من المانجو أو سباطة موز من هذه البائعة أو تلك فهي لا تملك الرفض . عندما يقول إن متجرك مخالف فعليك أن تعد ما معك من فرانكات وتذهب له تسترضيه . هذا فساد بسيط لا يهدد أمان دولة فى رأى .

أعمل فى المخفر فى هذا الحى ، وعملى متنوع يترواح بين أعمال الشرطة الحقيقية وضبط المجرمين ، وتنظيف المكان ومسح الأرضيات ، وطبخ الطعام وتعذيب السجناء . أفعل كل شىء .

أنا حضرت فجر اليوم الذى جلبوا فيه د . أناتول إلى هنا . كثيرون يعرفون الطبيب الذى يعمل فى وحدة طبية لا أذكر اسمها هنا . هو رجل طيب مهذب فلا أعتقد أنه يشكل خطرا على أحد . كما أنه فقير لا يستفز أحدا .

انفتح الباب وقذفوا به للداخل بين أربعة رجال شرطة أشداء . كان حافيًا بلبس ثياب النوم وعامة بدت لى هذه معاملة لا تليق بطبيب ...

ألم تكن لكم زوجة مريضة عولجت عنده من قبل ؟

حاول أن يتكلم فتلقى صفعه .. حاول أن يتكلم فتلقى ركلة .. حاول أن يتكلم فهوى أحدهم على مؤخرة عنقه ..

اقتادوه إلى الغرفة الداخلية ، وبينما هم يمشون أطل المساجين من زنازنتهم يطلبون منه أن يتماسك . لا تعرف ما فعلت أيها الشيطان النعس لكن يجب أن تتماسك فاللحظات التالية صعبة .

هناك أجلسوه إلى المقعد إياه وقيدوه ..

الجدران رطبة متسخة وثمة فأر يركض ليتوارى . الرائحة تدل على طفح فى دورة المياه المجاورة .

من مكان ما ظهر دوسكانيش .. يمكنك أن ترى أن رأسه ما زال مضمداً . وكان لا يكف عن ابتلاع أقراص الإسبرين بسبب الصداع .

كرشه يتراقص فى النور الخافت ويدخن .. يدخن فى استمتاع ليبدو

وغدا .

كان يمشى فى تودة وقد بدا عليه أنه لن يجهز على الطبيب بسرعة .
سوف يتذذ بكل لحظة بقتله فيها . مد يده إلى السلك ليتدنى المصباح
قريباً من وجه الطبيب المرهق المذعور .

قال له :

- « مرحباً بك فى جهنم يا دكتور .. سوف نمرح جداً لكن فى
البداية يجب أن أوجه لك سؤالاً »

ثم مد يده الغليظة ليرفع ذقنه لتتلاقى العينان ، واتسعت عيناه
المخيفتان وتراقص شاربه وقال :

- « من ابن الـ الذى ضربنى من الخلف ؟ »

لم يرد الطبيب فوجهه نه دوسكانيش صفعة ..

- « من الذى ضربنى من الخلف ؟ »

بدا واضحاً أن الطبيب لن يتكلم ، والضرب لن يتوقف .. لقد انهال
السؤال ألف مرة ..

- « من الذى ضربنى من الخلف ؟ »

- « من الذى ضربنى من الخلف ؟ »

- « من الذى ضربنى من الخلف ؟ »

وفي كل مرة المزيد من الضرب .. المزيد من التركلات .. دلو ماء
انسكب فوق رأس الطبيب ..

في النهاية وقد نفذ صبره أشار لى دوسكانيش كى أتصرف :
- « هلم »

هكذا هرعت أحضر البطارية والأسلاك ، وقمت بتوصيل الأقطاب
بجسد الطبيب وحركت المؤشر .. اندلع الصراخ مع صوت
الكهرباء ... دززززز ... أى يى !

في النهاية تركه يسترخى قليلاً ثم واصل التعذيب .. لابد أننا كررنا
هذا السيناريو حتى السابعة صباحاً . هذا قاس جداً .. أنا إنسان ومن
حقى بعض الراحة .

دوسكانيش المسكين كذلك بدا مرهقاً واحمرت عيناه من فرط
السهر . في النهاية أطلق سبة وطلب أن تحضر الإفطار .. سوف
نستريح قليلاً ، قال للطبيب :

- « أنت لن تخرج من هنا حياً .. عليك أن تتلو صلاتك »

ثم تذكر فقال فى اشمزاز :

- « هو ليس مسيحياً أصلاً . إنه ينتمى لديانة سيمون كيمبانجو »

ونحن نتناول الطعام قال لنا دوسكانيش وهو يتحسس ضمادة رأسه إن الطبيب من أسرة مشاغبة أخلت بالأمن طيلة حياتها ، أبوه كان شيوعيًا وقد حارب موبوتو ، لكن الشرطة قبضت عليه واختفى في المعتقل .. لابد أنه مات وأطعموا جثته للتماسيح .

- « إن القذارة تنتقل عبر الأجيال .. »

- « كلهم جديرون بالحرق »

قال دوسكانيش إنه لا يفهم سبب الاعتداء عليه بشكل مباشر ، لكن كيف يمكن فهم هؤلاء القوم ؟ إنهم مجانيين .. موبوتو قد فهمهم جيدًا . كان قومه من الكيجانى يأكلون لحوم أعدائهم ، وهو يعتقد أن هذا كان سلوكًا قويمًا .

استمر التعذيب للطبيب فترة طويلة ، لكن أناطول كان صلبًا .. كان يجمع بين الصلابة وفقدان الوعي ، وفي الحالين كنا نعجز عن انتزاع كلمات منه .. لابد أن لحظات فقدان الوعي كانت تمنحه إجازة محببة . عندما فتح عينيه بعد قليل ، دنا منه وجه دوسكانيش المخيف .. ونفت دخان التبغ في وجهه ثم قال :

- « أعرف طريقة لا تفشل في جعله يتكلم .. »

ثم دفن لغافة التبغ في معصم الطبيب وقال :

- « سيرين ! .. الفتاة ! »

ثم صاح فى رفاقه :

- « هلم .. إنها فى مدرسة الأطفال الآن .. ستجلبها هنا ! سوف نستجوبها »

هذه طريقة لا تخيب . كانوا يقولون : فتش عن المرأة .. بمعنى أنها مسنولة عن أى خلاف أو سوء فهم ، لكن رجال الشرطة هنا يفتشون عن المرأة ؛ لأنها أداة ضغط لا تخيب .

هب الطبيب يحاول التحرر من قيوده ، وصرخ فى هستيريا :

- « لا شأن لها بهذا يا دوسكانيش ... أنا من تريده ! »

لكن دوسكانيش فظ غبى .. لقد وجه للفتى المقيد لكمة قوية جعلته يغيب عن الوعي فوراً . ربما لو لم يفعل لتكلم الطبيب .. لكن من قال إن القوة الغاشمة تتمتع بأى ذكاء ؟

أنا زميل دوسكانيش فى العمل ، لكن أعتقد أنه أكثر اندفاعاً وقسوة منى بمراحل . إنه يتصرف كالثيران .

هكذا سقط رأس الطبيب على صدره ، بينما اندفع الجنود السود الغلاظ نحو السيارة وهم يضحكون . وسرعان ما تعالى هدير السيارة وهى تشق طريقها فى شوارع كينشاسا .

لم أعرف ما حدث بعد هذا لأن أحد الضباط استدعاني . أعتقد أنهم جلبوا الفتاة فعلاً . لابد أن التعذيب أنتهك قواها فكادت تهلك .. هكذا حملوها في السيارة وألقوا بها في شارعها أمام جيرانها .

بعد هذا يا سيدى ...

حسن .. ما أعرفه هو أن اهتمام دوسكانيش قل بالطبيب أناطول ، فلم يعد التعذيب بذات الانتظام والقسوة ، لكن الطبيب كان قد انهيار تماماً .. لم يعد يأكل أو يشرب ..

مرت أيام .. ثم أبلغت دوسكانيش أن الطبيب أناطول على وشك الموت .

طلب منى أن تذهب للزناينة لتراه .. كان الطبيب هناك يرقد وسط مياه المجارى والقنران ، وقد تورمت عينه .. وكانت شفته السفلى مشقوقة وأثار الحرق تملأ جسده .. القنران تتواشج من حوله ..

رأينا أن عينيه شبه مفتوحتين ، لكنهما بيضاوان تماماً .. لا يد أنه لا يقدر على غلقهما . إنه قد تحول إلى خزقة بالفعل . ركله دوسكانيش ونم يتحرك تقريباً ، قال دوسكانيش فى اشمزاز :

- « ألقوه فى الشارع .. لم أعد أريد شيئاً منه .. لقد انتقمتم بما

يكفى »

هكذا حملنا الطيب إلى السيارة وتركناه قرب السوق .. حيث التقف
 حوله الأطفال مندهشين . بدأ يتحرك وأدركت أنه قادر على الوقوف
 والمشي .. من ثم ابتعدنا .. عرفت فيما بعد أنه ذهب على الفور لبيت
 فئاته ، ولم يتصور أننا جردنا على ضربها ..
 هذا هو ما أعرفه عن القصة يا سيدي .. لا توجد عندي تفاصيل
 أخرى

taha

www.facebook.com/groups/ma7ara

شهادة د. علاء عبد العظيم (طبيب فى وحدة سافارى 7)

د. أناطول كان يحمل لى الكثير من الحب والتقدير ، ولهذا تصرفت بهذه الشجاعة المزعومة عندما راح يطلق الرصاص المجنون على زملاء الوحدة .. الأمر يشبه الأم التى ترى ابنها يقتل الناس فتدنو منه طالبة أن يتوقف ، لأنها لا تتصور أن يؤذيها ابنها ..

علاقتنا كانت قوية ، وقد قال لى مرارًا إنه يحب مصر والمصريين ، خاصة عندما عرف فى مراهقته موقف عبد الناصر من لومومبا ، وكيف أرسلت مصر قوات حفظ للسلام من أجل وطنه ..

لكن العلاقة لم تكن سياسية فقط بالطبع ، بل كانت علاقة شخصية ، وقد قمت بزيارته فى بيته الصغير الفقير عدة مرات ، وأعتقد أن الجيران عرفونى جيدًا .

قصة اعتدائه على رجل الشرطة القوى دوسكانيش معروفة للجميع ، وأعتقد أنها قتلت بحثًا .. كما أن سبب قتله له واضح تمامًا ولا يحتاج لتفسير ...

كان لى أن أرى مشهد الاعتداء ، بل وأن أكون طرفاً فيه .. هذا اعتراف صغير ظللت أختزنه فى صدرى .

ما فهمته هو أن دوسكانيش كان معجباً بالمعلمة الرقيقة سيرين .
 أنا قد نشأت كمصرى على أن اللون الأبيض هو الجمال بعينه ،
 ولا سيما لو كانت العينان خضراوين . ثم توغلت فى أفريقيا وتعلمت
 النكهة الخاصة للجمال الأسود .. السمراء ذات العينين الساحرتين
 والعنق الطويل والرشاقة . لقد صار مملاً أن أشبهها كل مرة بالغزال
 الوجل فى الدغل . كانت لى قصة مع غزال مماثل فى الناتال ، وكان
 اسمه أونوايا ..

ليس هذا موضوع حديثنا على كل حال . ما أردت قوله هو أن
 سيرين كانت نموذجاً مذهلاً للجمال الأسود الرقيق . كانت غزالاً ..

أما دوسكانيش فكان بشفتيه الغليظتين وكرشه ونظراته الوحشة
 يذكرك بالضباع . الضباع تحب لحم الغزال طبعاً .

كان يحوم حولها بلا توقف ، ولكم من مرة استوقفها وهى ذاهبة
 للمدرسة أو عائدة منها . يسألها أسئلة سخيفة أو يتحرش بها
 أو يهددها ..

يمكنك أن تراه ببذلته الرسمية يمشى والمسدس الغليظ يتدلى على ردفه ، مع تلك النظرة الأمنية الخطيرة على وجهه ، شأن شيوخ الخفر في الريف عندنا .. طاووس قبيح يتبختر ...

بشكل ما تذكرت هذه العلاقة عندما رأيت خالد صالح الرائع في دور (حاتم) في (هي فوضى) ، وقد كان دوسكانيش يشبه (حاتم) فعلاً من دون كاريزما الفنان الرائعة ..

بالطبع أدرك - بحاسته الضبعية - أن المدرسة الشابة مولعة بالطبيب الرقيق أناتول ، وبدا واضحاً أنه يتوق إلى تدميره في أقرب فرصة .. سوف يلقى له تهمة ما ..

قلت لأناتول :

- « كن حذراً .. انتقام هؤلاء يكون قذراً على الأرجح »
قال أنااتول في تحد :

- « دعه يجرب ما يستطيع .. إنني أعالج معظم ضباط كينشاسا ..
كلهم أصدقائي .. لن يجسر على أن يؤذي »

قلت لنفسى إنه يعرف ما يقول على الأرجح ..

لكن الأمور توترت في ذلك اليوم الذي كنت متجهاً فيه لداره ،
لأمضى معه ساعة كما أفعل كثيراً منذ وصلت لكينشاسا .. إنه يعرفني

بالكثير عن بلده وتاريخه . صحيح أنه يتحدث من جانب واحد هو الجانب اليسارى . ويصوغ كل شيء بلون السياسة .. لكن هذا يعود ننشأته وسيرة أبيه القديمة .

كان انوقت يدنو من الليل وأنا فى حارة ضيقة قذرة قرب الدار . فرأيت مشهداً غريباً .. للحظة خيل لى أن هذه لفظة من فيلم سينمائى ..

كانت سيرين هناك وكانت تصرخ . بينما دوسكانيش يمسك بذراعها بقلطة ويكلمها بالسواحلية ..

طبعا لا داعى للترجمة .. يقول لها : أنت لى .. أو : لا يمكنك الفرار .. إلخ وهى ترفض وتصرخ .

من مكان ما - كما يحدث فى الأفلام الهندية - برز د . أناتول الذى فقد كل تحكم له فى أعصابه . انقض كالصقر على دوسكانيش وخرس مخالفه فى وجهه فتخلى عن الفتاة ..

بدا الأمر مثيرا للشفقة . كأنه ضفل يحاول أن يؤذى وحيد القرن ... سرعان ما استطاع دوسكانيش أن ينزعه من على وجهه ووجه له لكمة ألقت به أرضا .

قال شيئا بالسواحلية . يسهل فهم ما قال : « لقد تحملك كثيرا أيها الطفل » أو « سنعرف أن العبث مع دوسكانيش خطر » ...

صرخت سيرين من جديد وانطلقت هاربة نحو طرف الحارة الآخر - وهو تصرف جيان فى رأى - بينما راح دوسكانيش يوجه الركلات لخصر الطبيب الساقط فى الأرض الموحلة المتسخة ..

الرؤية تزداد صعوبة . لكنى استطعت بسهولة أن أرى ذلك الحجر على الأرض .. حجر ثقيل مذهب لو رفعته لاكتسب طاقة وضع ممتازة .. طاقة الوضع تتحول لطاقة حركة بسهولة ... المجد للضعفاء الذين يفهمون قوانين الميكانيكا .

التقطت الحجر ولم أتردد . لو ترددت لفتك به ...

قليل ذهب الحذر إلى الجحيم . من يدري ؟ لربما استطاع سفيرنا المصرى فى الكونغو أن يحررني من السجن بعد عشرة أعوام ..

انطلقت بسرعة ورفعت كلتا يدي وهويت بالحجر على مؤخرة رأس دوسكانيش .. ولم أنتظر لأعرف التأثير .. رفعته وهويت من جديد .. سقط أرضاً جوار الطبيب بلا كلمة واحدة .. هرعت أجتو جواره لأتأكد من أننى لم أرتكب جريمة قتل ، فانتفض فى غيبوبته وهوى يقبضته الثقيلة على قمى فكسر سنتين .. ثم عاد لغيبوبته .. لم يقصد أن يضربنى لكن التعامل معه يشبه التعامل مع خرتيت مخدر .

على .. بوماييه ! ... على بوماييه ! !

(اسحقه يا على ! ... اسحقه !)

★ ★ ★

قال أنا تول وهو ينهض لاهتًا :

- « ما كان لك أن تتورط في هذا »

- « يا سلام ! .. كان على أن ألق وأراقبك وأنت تموت ثم أدعو لك

وأنصرف . على كل حال هو لا يعرف من هاجمه »

كان يتكلم وهو يتلمس أزرار سترة دوسكانيش فاقد الوعي ..

ويفتحها بصبر .. ثم يفك حزامه ..

قلت له في دهشة :

- « ماذا تفعل ؟ »

- « أجلسه بالعار ! »

وفي عزم وثقة راح ينزع الثياب عن رجل الشرطة حتى صار عاريا تماما .. كان هذا مجهودا شاقا خاصة مع ثقل وزن الرجل وقذارته .. واضح أن الوغد لا يستحم أبدا ، ثم راح الطيب بحرص يقيد رجله سقا ، ويقيد يديه خلف ظهره . ثم إنه حمل المسدس وألقاه في الوحل على بعد أمتار ..

ما زلت لا أفهم ..

قال أنا تول :

- « سأتركه هنا ... وعندما يفيق لن يجد مقراً من التواب كالمضدع عارياً تماماً وسط المنطقة السكانية . سيراه الأطفال ويضحكون ويقذفونه بالحجارة .. والنسوة سيسكين عليه ماء الغسيل القذر ... سوف يصرخ طالباً العون فيضحك الجميع .. سيبكى كالتساء من القهر .. هو يستحق هذا الانتقام »

لا أحب هذا .. لا أحبه أبداً .. لقد انتهى أمرنا يا أنا تول ..

سرعان ما رحنا نركض مبتعدين ..

عندما وصلنا لدار أنا تول سمح لى بالدخول ، ثم أخرج طسّاً وراح يفسل وجهه من الوحل .. وقدم لى كوب ماء لم أشربه طبعاً لأننى لا أشرب فى الكونغو سوى المياه المعدنية .. الدار قذرة جديرة برجل عزب ، وجديرة برجل لا يكسب تقريباً ، لكلك تجد الكتب الطبية والسياسية فى كل مكان .

قلت له وأنا أرتجف :

- « أنت سخرت من الغول .. سيكون انتقامه مخيفاً .. لن نعيش

يومين »

- « بالعكس .. كانت هذه هى الطريقة الوحيدة لانتقاء شره بعد ما ضربته أنت على مؤخرة رأسه . لقد صارت رحلة بلا رجعة »

- « لا أفهم »

جفف أناطول وجهه بالمنشفة وقال :

- « سوف يجلبه العار .. سوف يذبل بسرعة ولنسوف يطلب أن ينقلوه لمنطقة أخرى .. الرجال الذين فقدوا كرامتهم لا ينتقمون .. ثم إنتى سأطلب حماية بعض الضباط من أصدقائى هنا .. لن يؤذينى »

كان يتكلم بثقة وسيطرة مما جعلنى أدرك أنه يخرف .. كل من يتكلمون بهذه الثقة مخطئون دائماً .. لا أعرف كيف وضع حساباته تلك .. ما أعرفه هو أن الضيع الجريح يكون مرعباً قاتلاً .. لم أسمع قط عن ضيع جريح يخفض رأسه وينصرف فى خجل ..

لم يعد لى مزاج لإطالة السهرة فطلبت الانصراف . فقط طلبت منه بينما دوسكانيش ينزع أظفاره ألا يذكر اسمى .. فليحاول أن يصمد حتى تأتى لحظة اقتلاع العينين ..

ضحك كثيراً وبدا راضياً عن نفسه .. لم أعرف أنه سيختفى فجر اليوم التالى .

عدت من بيت أناطول وتعمدت المرور قرب الحارة التي عرى فيها
 دوسكاتيش .. أدركت على الفور أن سيناريو أناطول قد تحقق .. كان
 هناك حشد من الناس والنساء والأطفال ، وئمة مناخ عامة من السعادة
 والمرح . ويبدو أن البعض كان يمازح دوسكاتيش بطريقة (القافية
 المصرية) فيقول كلمة ثم يتبعها بوصف ساخر .. عجيب موضوع
 الإيماءات هذا .. أو شك أن أسمع لفظة (هاو) ...

في منتصف الدائرة كان العملاق الأسود مقيدًا غارقًا في الوحل ،
 عاريا تماما يحاول أن يكمش جسده ليقلل عريه قدر الإمكان . مشهد
 يثير الشفقة بالتأكيد ، لكن من الواضح أنهم جميعا يكرهونه .. هناك
 شماعة واضحة في وقتهم ..

وفي النهاية قرر رجلان أن ينهيا عذابه .. من مكان ما ظهرت مدية
 ومزفوا الثياب التي استعملت كقيود .. وألقى أحدهم بملاءة عليه .. هنا
 الناس فقراء فلن تجد سروالا إضافيا عند أحدهم للأسف .. لا سروال
 ولا حذاء .

وسرعان ما ظهرت سيارة الشرطة .. طلبها أحدهم .

ألقوا بالوحش الجريح فيها ، وانطلقت بينما الناس يقدفونها
 بالحجارة ، وقد تجرعوا جذا .. أخرج أحد الجنود قبضته مهددا للناس
 وأطلق سبة بذيئة .. كيف عرفت أنها بذيئة ؟ هذا منطقي مع تعبيرات
 وجهه ..

عندما اختفت السيارة كنت أشعر أن السيناريو لن ينتهي بعد ..

شهادة آن ليراي (مساعد مدير الوحدة)

تعرف يا سيدى أننى بلجيكية ، ووجودى هنا نوع من التوازن ..
المدير كونغولى ومساعدته بلجيكية . الحق أننا أحدثنا كبلجيكين
الكثير من التخريب فى هذا البلد ، وعاملناه بقسوة بالغة لدرجة تسميته
(الكونغو انبلجيكى) . لكن لا ننب لى فى هذا .. ليس الخطأ خطئى .

لا أنكر كذلك أن هذا بسبب الكثير من مشاعر الضغينة نحوى .
لا فارق عندهم بين بلجيكى وآخر كأننى ابنة الملك ليوبولد شخصيًا ،
وعندما أعاقب ممرضة سوداء لأنها مهملة ، فإنهم يقولون : السبب
أنها سوداء .. يوم تحدث فتنة أو تمرد فإننى من أوائل الرعوس التى
ستطير .

هذا ليس موضوعنا على كل حال .

أردت قول إننى كنت أحب د . أناطول فعلاً ، فهو شديد الذكاء والرقى
كما أن حساسيته لا شك فيها .

أما ما حدث وتلك المأساة التى كنفتنا العديد من الرعوس ، فلا
يوجد ما أقوله .. على قدر ما أعرفه فى كل حوادث الأموك -

أو إطلاق الرصاص العشوائي الجنوني - فإن القاتل لا يحمل أى ضغينة
ضد من يقتلهم ، بل هو لا يعرفهم أصلاً .

نماذا جُنُّ أنا تولى ؟

لا أعرف .. يقولون إنه وقع تحت ضغوط قاسية .. لا يمكننى الحكم
على ذلك .

منذ جاء للوحدة وهو يؤدي عمله جيداً . الكونغو بلد فى حال مزرية
من الاضطرابات العرقية والسياسية لذا يفشل أى مشروع صحى واسع
الأجل لأن الحروب الأهلية تدمر هذا كله .

لهذا فشلنا فى القضاء على داء النوم أو الملاريا . بل إن الحصبة
هنا وباء قاتل يفتك بأعداد كبيرة ..

لهذا وجد أنا تولى الكثير مما يقوم به .. لاحظت أنه يعمل بنزعة
استشهادية واضحة كأنه يحارب .. وأدركت أنه يحارب بالفعل من
أجل وطنه .. فقد عرف العدو الحقيقى بعد البلجيكيين ...

إن أعداءه منتشرون فى كل مكان .. صغار الحجم جداً .. تحتاج إلى
مجهر حتى تراهم ..

قاتلون دائماً .. اسمهم البكتريا والفيروسات ..

كانت هناك مشكلة خطيرة حدثت ذات يوم ، وكان أنا تول طرفاً فيها ..

قلت لك إنه هادئ جداً أقرب للوداعة ، وأنا أخشى فعلاً هذا الطراز من الناس .. انفجارهم مرعب دائماً ..

ما حدث هو أنه كان لدينا مريض بحمى .. أعتقد أنها التيفود . كان رجلاً في الأربعين من عمره أصنع الرأس نه شارب كث ، وكان شاحباً بشدة ..

لم أزه بالطبع لأن هذه مهمة الأطباء الأصغر .. عرفت فيما بعد أن اسمه ليونيل ميثا .. مدرس وشاعر وثائر قديم . يبدو أنه من أسرة اضطهدوا موبوتو ، ولهذا كانت العلاقة قوية بين أنا تول وبينه .

في ذلك اليوم جاءت الممرضات يستغثن بالمدير ؛ لأن رجال الشرطة اقتحموا عنبر الحميات .. ماذا يريدون ؟ قالوا لي إنهم يريدون اصطحاب مريض .

هرعت إلى العنبر وسط الزحام لأرى رجلى شرطة ورجلاً ثالثاً لن أنساه أبداً .. كان ضخماً كالغوريلا غليظاً ، وواضح تماماً أنه فخور بنفوذه وبدولته .. كان هذا هو دوسكانيش رجل الشرطة المهم الذي فتك به أنا تول فيما بعد .. قبل نوبة الجنون التي جعلته يقتل الجميع ..

دوسكاتيش كان هناك ويداد فى خاصرته .. تطل الفسراسة من عينيه ، ويمكنك أن تدرك أنه فاسد .. فاسد تماما قبل أن يفتح فمه .. كرشه يتدلى فوق الحزام والطبنجة تتدلى على ردفه .. لابد أنه يعيش على الرشوة ..

كان .. أنا تول هناك ... وكان يقف فى تحدٍّ أمام سرير ليونيل .. سألت عما هناك فقال أنا تول :

- « يريدون اعتقال هذا المريض ، وهو مريض عندي ولا أسمح بنقله .. كما أن حالته خطيرة »
قال دوسكاتيش فى غلظة :

- « تكلم فى الأوامر .. الأوامر هى الأوامر .. هذا الرجل خطر على الأمن والنظام »

نظرت لليونيل الشاحب الفارق فى العرق وهلاوس الحمى ، فلم يبد لي خطراً على قطعة صغيرة .. قلت فى تهكم :

- « لا اعتقد أنه مرعب لهذا الحد .. »
قال أنا تول فى ثبات :

- « أنا لا أعرف تعليماتك يا سيدى ولا أهتم بها .. ما أعرفه هو أن هذا المريض فى حالة خطيرة ولن يتحرك من هنا »

ثم التفت لى :

- « أرجو أن تسجلى كلماته والساعة يا دكتورة .. سوف يخرج وراءه جيش من المحامين .. سوف أبلغ كل الهيئات الحقوقية »

كانت هذه طريقة مستغزة لا شك أنها مستزید دوسكانيش عنادًا وتمسكًا برأيه .. التحدى يجعل الرجال يرتكبون أكثر الأمور جنونًا ، وكان على أن أتكلم بصوت العقل .. طلبت من هؤلاء السادة المتوحشين أن يتبعونى لمكتبى ، فأصر دوسكانيش على أن يقف شرطى جوار الفراش حتى لا يفر المريض .

فى مكتبى قدمت للرجلين البيرة المثلجة ، وقرأت أمر الاعتقال الموجه ضد ليونيل .. أدركت من وجه دوسكانيش أنه سيرحب جدًا برشوة ، لكن لماذا أقدم له رشوة ؟ موقفى قانونى ، ثم إن المريض لا يهمنى لدرجة أن أنفق عليه من مالى .. فقط هى مسألة مبادئ .

فى النهاية اتفقا على وضع حراسة على العنبر إلى أن يتحسن الرجل ، وبعدها يمكن أن يأخذه إلى السجن مباشرة ..

قلت لدكتور أناطول عندما جاء مكتبى :

- « هذا الدوسكانيش فاسد مغرور .. لا تحاول الصدام معه »

قال فى تهكم :

« كل كينشاسا تعرف دوسكانيش .. إنه أفسد رجل شرطة فى العالم ، ولا يجب أن تحمله على محمل الجد .. هذا الطراز من الناس يجب أن يعامل بصلابة .. تجدينه يتراجع فورًا كفار »

سألته عن الطبيب المصرى الجديد القادم من الكامبيرون ، فقال إنه لطيف . لا يهوى القراءة جدًا بل هو مولع بكل ما هو يدوى ، لكنه نشط ..

طلبت منه أن يعنى به .. إنها فترة انتداب قصيرة بسبب قلة الأطباء عندنا .. سوف يعود للكامبيرون فورًا وسوف يخبرهم بأسرار أسرارنا .. يجب أن يحمل ذكرى طيبة عن تجربته هنا .

هذا هو اللقاء الوحيد الذى حضرته بين د. أناتول و دوسكانيش يا سيدى .. لا أعتقد أنه يقدم مبررًا كافيًا لأن يقتل الأول الثانى .. لا شك أن الأمور تطورت بعد هذا لكن هذا كل ما لدى ..

لربما كان شخص آخر يملك الإجابة ..

taha

شهادة كيشا ليونيل (ممرضة فى وحدة سافارى)

أطفالى الخمسة فى البيت فى شرق كيتشاسا نعى بهم أمى
المجوز ..

سأحاول أن أحكى بسرعة يا سيدى ..

أنا أعمل فى عنبر الحميات بوحدة سافارى 7 كما تعرف يا سيدى ،
وأحاول أن أودى عملى جيداً ..

عندما حضر الطبيب المصرى (علاء) قادمًا من الكاميرون ، بدأ
لنا غامضًا فى البداية ، وإن كنت لا أنكر أنه وسيم وجذاب .. برغم
أنه ليس شابًا فإن بعض الخصلات الشائبة فى شعره وملامح التضج
تعطيه جاذبية لا بأس بها .

تعرفنا به معشر الممرضات فحدثنا عن زوجته الكندية الرقيقة التى
تنتظره مع ابنته فى الكاميرون .. حدثنا عن وطنه مصر حيث
أبو الهول والأهرام كما كنا نراها فى كتب المدرسة ..

هنا ظهر د . أناطول ، وكان لطيفًا مع الضيف الجديد ..

مع الوقت صاروا صديقين لا يفترقان .. قيل لى إن أنا تول يحب المصريين لأسباب سياسية قديمة ، ولهذا أمضى أياما جميلة مع صديق مصرى جاءنا منذ عامين ..

نحن نحب د. أناتول التشيط الرقيق الفقير ، ونعرف أنه يتعاطف معنا ، كما أنه يحب المرضى فعلاً . لكنك ترى فى عينيه حزناً مرهقاً غريباً .. هناك شرح فى ذكرياته وفى رؤيته للعالم .

أخبرتسى الممرضات أنه غارق فى حب مدرسة رفيقة اسمها سيرين ، ويبدو أنه يرافقها أثناء عودتها من المدرسة معظم الأيام .. هناك فارق سن كبير بالتأكيد .. هذا يدهشنى .

ما حدث هو أن إحدى الحالات المرضية جاءت للعنبر .

كانت امرأة تدعى ميرادوم من محافظة ولى العليا فى الشرق .. وكانت قد بدأت تعاني تدهوراً فى الوعي وفقدان القدرة على التركيز .. مع الوقت سقط رأسها على صدرها وهى تتناول الطعام ، فحملها أهلها من قريتها إلى كينشاسا .. نحن نرى هذا الموقف كثيراً .

فحص د. أناتول المرأة وتفحص حدقتى عينيها بالكشاف .. بينما وقف د. علاء جواره وقد دس يديه فى جيبي المعطف ..

تفحص د. أناتول نتائج الأبحاث العاجلة التي تم الحصول عليها ،
وكننت أنا واقفة بالطبع فسمعته يقول :

- « هناك أشياء مفروغ منها بالنسبة لنا . رأس يسقط على الصدر
أثناء الأكل .. حمول .. محافطتا ويلي العليا والسفلى .. هناك يبلغ
معدل العدوى بمرض النوم 5% .. الصحة العالمية تقول إن الوباء
يكون خطراً إذا زاد معدل العدوى عن 3.0% ... لهذا يصير التشخيص
واضحاً قبل أن تفحص السائل النخاعي الشوكي . يرغم هذا لابد من
سحب عينة ، وفحص الدم باختبار « wb-CATT »

ظل علاء يحك لحينه شأن من لا يروقه الكلام ..

طلب د. أناتول أن يعدوا له أدوات التعقيم ليسحب عينة من المرأة ،
لكن علاء ظل يرمق نتائج الأبحاث.

بعد لحظات قال بصوت مبجوح :

- « معذرة ... لكن لمن يأتي من خارج المشكلة نظرة تختلف عن
يأتي من داخلها بلا شك .. ألا ترى هذا ؟ كل الأدلة تشير إلى أنه مرض
النوم بالنسبة لك وليس بالنسبة لي ... »

ابتسم أناتول وتساءل :

- « وماذا تقصد ؟ »

- « بعض هذه التحاليل يشير إلى أن الكبد ليس على ما يرام .. »

- « ما زلت لا أفهم »

- « أقصد أن احتمال غيبوبة كبدية وارد .. ألا ترى هذا ؟ »

ضحك أناطول وقال وهو يشر كميته تأهباً للعمل :

- « عندما تسمع الحوافر ، فإنك تفكر فى الخيول لا الحمر الوحشية ..

لا تنس هذه القاعدة . عندما تكون فى بلد مرض النوم ، وتقابل امرأة

غلبها النوم فإنك

ومكذا دارت عجلة التشخيص ..

بعد ساعات كان الأمر واضحاً .. لا توجد تريبانوسوما فى السائل

النخاعى ولا الدم ، والتحاليل المصلية سلبية ..

نظر أناطول لعلاء فى عينيه .. وقال وهو يضع يده على كتفه :

- « غيبوبة كبدية !... لا أعرف بحق أى ساحر أنت ، لكنك نملك

قدرات التخمين مثل السحرة بالفعل .. »

قال د . علاء فى تواضع :

- « لأننى فكرت خارج الصندوق للحظة .. فى لحظة من حياتنا فى

مصر كنا نفكر في أي شيء على ضوء البلهارسيا .. احتجنا لوقت طويل كي نتحرر »

- « لكنني لم أتحرر من عقدة مرض النوم بعد »

مع الوقت صار هذان صديقين لا يفترقان .. لقد ولد بينهما احترام عميق كما قلت .. من الجميل أن يلقي المرء صديقًا حقيقيًا يحترمه ... هذا هو ما عندي يا سيدي .. لم يستجد شيء إلا لحظة الهجوم الجنوني إياها ..

شهادة د. علاء عبد العظيم (طبيب فى وحدة سافارى 7)

كنت قد خرجت من تجربة قاسية حقًا فى الكامبيرون مع ساحرة أفاع .. شرح هذا يطول يا سيدى ، كما أنه سيجعل كلامى أقرب للذهيان ولن تصدق حرفًا منه .. المهم أنهم انتدبوني للكونغو .. وحدة سافارى 7 ، وهى من أهم وحدات سافارى فى أفريقيا كلها .

كنت ساخطًا غاضبًا ، من ناحية لأننى تقدمت فى العمر جدًا ولم أعد أتحمّل هذه المغامرات ، ثانيًا لأننى سأترك زوجتى وابنتى ، وثالثًا لأن انطباعى عن الكونغو سيئ عامة .

فى النهاية أرغمت نفسى على أن أنقاد للتّيار ، وودعت رفاقى وزوجتى ..

كلما سافرت لبلد آخر خطر لى أننى لن أعود أبدًا .. هذا متوقع فعلاً مع حظى العاثر الذى أوقعنى فى شتى أنواع المشاكل . لكننى تكلمت أنسى ذهبت لكينيا وذهبت لجنوب أفريقيا .. وتعاملت مع مشاكل لا حصر لها . واضح أننى أتمتع بنوع فريد من الحظ الذى يبقينى حيًا برغم النقص .

فى النهاية وجدت نفسى فى كينشاسا أركب سيارة من المطار
متجها لوحدة سافارى ..

مكان جديد . أصدقاء جدد .. مشاكل جديدة .. البعض يرى هذه
مزية ، والبعض يراها عيبا ..

شعور بالغربة قاس عنيف ، ثم يزول مع الوقت .. ثم أعناد
الموجودين .. ثم أحبهم .. ثم أبكى بحرارة لحظة الوداع وأنا أكتشف
أننى لن أرى (جابريل / لارا / إلخ) مرة أخرى ..

صار هذا الروتين معتادا .. بل صار مملا ..

اجتاز السائق الأسود الذى أرسلوه لى بوابة الوحدة .

وحدات سافارى تتشابه فى أفريقيا كلها . الحديقة والمباني
التي على شكل حرف L .. هناك سيارات الوحدة التي تحمل شعار
الوجه الأفريقى الأسود . هناك تمثال مؤسس الوحدة يقف فى
نافورة وسط الحديقة . هناك رقعة خالية تقف بها طائرة الوحدة
العمودية .. هناك السك المصنع الذى يحيط بالبنية . نفس التصميم ..
نفس المهندس ..

تشعر بألفة كبيرة عندما ترى هذه السمات . الحقي أن سافارى

صارت جزءاً مهماً من حياتى وشخصيتى . خلاياى نفسها تغيرت بعد كل هذا العمر .

مثلما هو الحال فى جنوب أفريقيا . فإن المدير آرثر بيرسين كونغولى أسود .. بينما نائب المدير شقراء بلجيكية من جنس المستعمرين . اسمها أن ليراي وهى بالتأكيد لا تحمل أى خلايا استعمارية . حفظت هذا النوع من التوازنات منذ زمن ..

وضعت حقيبتى فى الغرفة ، وهى غرفة مريحة حسنة التكييف لحسن الحظ . كل أجهزة التكييف فى وحدات سافارى عبر أفريقيا لا تعمل . صارت هذه قاعدة لكن الوحدة هنا استثناء ، وقد أقسمت على أننى سأرتدى ثيابى كلها وأتدثر بغطاء ثم أشعل جهاز التكييف على أقصى طاقته . هذا نوع من الانتقام من قضاء الليل بالثياب الداخلية غارقاً فى العرق تحت مروحة تعمل كجهاز طرد أرواح .

أقول إننى وضعت حقيبتى فى غرفتى ، ووضعت المتبىة الصغير وصورة زوجتى وابنتى على الكومود ، ثم ذهبت لمكتب المدير .

كان من الطراز الأسود الفخم الموحى بالأناقة والثقة . وله صوت (دولبى) غليظ عميق محبب . أحب هذا الصوت جداً . أما ليراي فكانت

جالسة على الأريكة تدخن وتراقب لقاءنا .. كانت فى الخمسين من عمرها . لها وجه يوحى بملاحة قديمة ، لكن الأيام قد جعلته فاسيا جافا ..

قال لى المدير :

- « سوف تحب العمل هنا يا دكتور علاء ... »

وقالت آن ليراي :

- « كيف حال د. بارتلييه ؟ لم أره منذ زمن .. »

يزداد بدانة وطعن فى قصة حبه الملتهبة لخبرة تغذية تقتل أزواجها .. هذه هى أخباره فعلا ، لكنى لم أجسر طبعا على أن أقول هذا فهزئت رأسى بمعنى أنه بخير ورائع .

قال المدير :

- « لديكم دكتور آرثر شيلبي وهو رجل عبقري .. أعتمد أنك تشربت

خيرات هؤلاء العباقرة »

لا لم أشرب ..

لكنى قلت له إننى تشربت .. تشربت الكثير جدا لدرجة التشبع

التمام . لو لمسنى أحدهم لتز العلم من جلدى ..

- « هذا جميل .. أنت ستكون بحاجة إلى كل هذا العلم ؛ لأننا سنجعلك في عنبر الحميات »

لا .. ليس الحميات .. لا تختاروا أى فرع يعتمد على كثرة القراءة .. لا تختاروا أى فرع يعتمد على الفكر المتعقل الهادئ .. لا تتركائى مع مرضى مرهقين نائمين .. أريد حركة وغرفة جراحة ودما وصراخا وممرضات يجرين ..

لكن السيف قد سبق العذل ، ولات حين مناص ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

سرعان ما وجلت نفسى فى جدول المرور والعلاج بقسم الحميات ، ونمت ليلة نابغية هى أول ليلة لى فى البلاد .

صحوت من النوم متعكر المزاج ، وذهبت للعنبر لأقابل د. أناطول . هذا هو لقائى الأول به . وقد حكى لى عن حياته كيتيم حتى صار طبيبا وكيف كافحت أمه لتضمن له أن يتعلم . كانت تعمل خادمة وغسالة لتوفر نفقات التعلم .

كان نحيلًا شديد الحساسية ، وهو يماثلنى فى العمر أو أكبر قليلا ، وقد بدأ شعر فضى يغزو فوديه لكنه يمنحه وقارا وجاذبية بلا شك . ثم فطنت إلى أنه يشبه لوموميا فعلا .. لا مزاح فى هذا .. يشبه صور لوموميا التى كنا نراها على الطوايع المصرية فى الماضى .

اعتدت أن أقوم بجولة المرور معه ، وكان يعرف الكثير وقد تعلمت منه أشياء عديدة .

يعانى الكونغو من قائمة هائلة من الأوبئة ، لكن هناك الملاريا والإيدز ومرض النوم الوبيل والحمى انصفراء و - بالطبع - حمى الكونغو والقرم ، التى يمكن أن تدرك من اسمها أنها متوطنة هنا . عرفت كذلك أنه - أنا تول - شارك فى إنقاذ القتلى إبان الحرب الأهلية .. هناك عشرات الحروب الأهلية بين الهوتو والتوتسى فى هذه البقاع وهى لا تنتهى أبداً ... يبدو أنه رأى كوارث حقيقية ومجازر لا حصر لها .

ثم إنه دعانى لزيارته فى بيته ..

ذهبت معه هناك ، ففوجئت بمدى الفقر والقذارة وانعدام الخدمات فى تلك الأحياء الثنائية ، وقد بدا أن بعض الشوارع لم يرصف منذ عشرين عاماً .

ننقل أقدامنا فوق الحجارة التى ألقتها أحدهم على مياه المجارى الطافحة . صارت نوغا من الجزر لكن المصيبة لو وقعت من فوق أحدها .

هنا أدركت لماذا يمضى معظم الوقت فى وحدة سافارى .

يتقاضى أناطول راتبًا ممثلًا لما أتقاضاه لكنه يرسل قسطًا ضخمًا منه لأسرتين معوزتين فى قريته ، ومن الواضح أن هذا لا يترك لديه أى هامش للشراء . أنا نست ثريًا لكن راتب سافارى لى وبرتانت يكفينا لحياة كريمة فى الوحدة نفسها ، ولدينا مدخرات لا بأس بها .. أما أناطول فمن الواضح أنه لا يدخر مليًا ..

كان البيت ضيقًا مكونًا من غرفتين . هناك مطبخ صغير فيه موقد وبعض الآنية . بينما الأثاث قديم وبسيط جدًا ، والجدران مشققة تساقط ملاطها بفعل الرطوبة .. والحمام بلا جدران تحيط به .. أى أن المرحاض فى الصالة على طريقة السجون ! ومن الواضح أنه يستحم بصب الماء على نفسه بالكوز واقفًا فى طست كبير .

هناك تلفزيون صغير جدًا .. بحجم صفحة الجريدة لو طويتهما لنصفين . وهناك حشد من الكتب السياسية والطبية . بعض الكتب مفتوح .. (أكيه .. سنوات الطفولة) للنجيرى صاحب نوبل وول سوينكا . كتب للسنگالى ليوبولد سنجور . هذا أفريقى فخور بأفريقيته جدًا .

أعد لى بعض الشاي . تعلمت منذ جئت للكونغو ألا أشرب الماء
إلا فى زجاجات . وألا أشرب أى مشروب غير ساخن . لا بأس
بالشاي .

كان أناطول يمثل لى لغزًا ..

هو بلا زوجة ولا ولد . ليست لديه طموحات معينة ولنسوف يعيش
ويموت على نفس الوثيرة فى وحدة سافارى ..

بالنسبة لى لدى زوجتى برنادت . ولدى ابنتى التى سأراها تكبر
يومًا بعد يوم . مع احتمال لا بأس به أن أرزق بأطفال آخرين .. لدى
طموحات علمية ودراسية . ولدى وطنى مصر الذى أحلم بأن أعود له
يومًا ما . مهما نجحت فى حياتك فأنت تحمل مشاعر ابن القرية الذى
يتمنى أن يعود لها ناجحًا مطلقًا . لا قيمة للنجاح من دون هذه الخطوة
الأخيرة . وهى نشوة لن تتحقق لو ظلت فى الخارج للأبد .

لدى أمى وأهلى . لدى غرفتى وبيتى ...

أناطول لا يملك شيئًا من هذا . فهو مقطوع من شجرة وهذا هو وطنه
فعلًا . وهو حاصل على الزمالة .. لا يوجد غد ؛ لأنه استنفده فعلًا . لن
يصير ثريًا ؛ لأن وضعه هذا مستمر للأبد ما لم يزدد فقرًا .

في حذر سألته عن بعض ما يدور في ذهني .. بالطبع لم أقل
له إن حياتك مثل حياة الخنافس لا مستقبل لها ولا جدوى .. ليس لهذا

الحد !!!

مد يده إلى ديوان شعر .. وفتح صفحة منه وقال :

« أيتها المرأة »

مسي بيديك الشافيتين الناصعتين جيبي

في الأعلى نخلات تتمايس هامسة في التسمات العالية الليلية

حتى .. لا صوت لمرضعة تترنم لوليد

فاحملنا الصمت المتناغم، ولنصغ إلى أغنيته

ولنسمع دما الداكن

ولنصغ إلى أفريقا (*) »

ثم تنهد وقال في نشوة :

- « هذا شعر ليوبولد سنجور .. السنغالي العظيم »

وعاد يتلو الشعر :

« لنصغ إلى أفريقا

لبضات الأرض المحجوبة بضباب فراها المختفية

ثمة قمر سنم يتحدر نحو سرير البحر الساكن
ونعاس يلوى أعناق الضحكات
ورواة يغلبهم طيف النوم كطفل تحمله أمه
تتناقل قدما الراقص ولسان الكورس
هذا وقت النجم الساهر
والليل الحالم يتراءى مكتنبا فوق روابي الغيم
ومرتديا جنباب حليب»

شعرت بقشعريرة . هذه كلمات ساحرة تنقلني نقلا إلى عوالم ليالي
أفريقيا الساحرة ..

أنهى القراءة فوضع الديوان جانبا وقال كالحالم :

- « هذه هي أفريقيا .. والكونغو يعني أفريقيا .. لا أريد شيئا ولا
أطالب بشيء .. فقط أريد أن أعنى بهؤلاء البؤساء وأمنحهم علمي
وعمرى ووقتي . لقد عانوا كثيرا ويستحقون من يهتم بهم قليلا . نعل
عدم زواجي قد جعل الأمور أسهل لأنني لست مطالبا بالكسب »

ثم اتجه إلى نافذة صغيرة ففتحها بصعوبة . ومنها جاءت ضوءاء
الشارع والباعة وصخب الأطفال .

قال لى :

- « أعرف أنتى لن أعيش طويلاً .. سوف أصطدم بالسلطات يوماً ما ، ولن أتحمّل هذا الصدام ... الأمر يشبه أن تقف أمام قطار مندفع ، ستكون نهايتى مثل أبى »

قلت باسمًا :

- « أبوك لم يقتل »

- « مع موبوتو ومع اختفائه كل هذه السنين يمكنك أن تقسم أنه فى جوف تمساح ما . لقد رحل موبوتو لكن الكونغو سيظل جائزة لا تتخلّى عنها الاحتكارات ولا يفارقها الفساد .. سيظل الكونغو ينزف للأبد ، ومعنى هذا أن الصدام قادم »

كان يتكلم عن أمور عامة ..

لم يخطر لى أن الفساد سوف يمسه هو شخصيًا ويؤذى قصة حبه .. وأن الضغوط سوف تتزاحم عليه إلى درجة الجنون .

هذا عالم قاس .. عالم لم يُخلق له الحساسون ذوو الجهاز العصبى الهش .. إنهم يحترقون بسرعة مثل المنصهر الذى كان فى بيتنا . كلما

كان السلك رقيقاً رقيقاً ذاب بسرعة مع تغيرات التيار . لابد من سلك سميك نوعاً ، لكن السلك السميك يهدد البيت كله بالاحتراق .. لابد من هؤلاء المرهفين حتى لا يحترق عالمنا

لكني لم أكن على علم بالمستقبل وقتها طبعاً .. فقط أرى طبيعياً أفريقاً ثانزاً يشبه لومومبا جداً ...

قلت لتفسي وأنا أظن له وهو يحدق خارج النافذة :

- « سوف تحدث أمور رهيبه هنا ... لكم أن تراهتموا على

هذا ! » .

تمت بحمد الله

taha

- | | |
|---------------------------|----------------------------|
| ٢٧ - H.I.V | ٩ - الوباء . |
| ٢٨ - توركانا . | ٢ - خاطفوا الأجساد . |
| ٢٩ - حكاية ثقب . | ٣ - الحريق . |
| ٢٠ - قصاصات . | ٤ - رقصة الموت . |
| ٢١ - العادث . | ٥ - تجربة محرمة . |
| ٢٢ - لماذا جنت الأبقار ؟ | ٦ - أشياء تحدث ليلاً . |
| ٢٣ - زوئو . | ٧ - الآن تراه . |
| ٢٤ - حكايات من الناطال . | ٨ - الكابوس - |
| ٢٥ - رجال من رجال . | ٩ - الفصيلة - |
| ٣١ - هواء فاسد . | ١٠ - العاشر . |
| ٣٧ - رجل الرمال . | ١١ - يوم ثارت الوحوش . |
| ٢٨ - الأخير . | ١٢ - أرض الجنون . |
| ٣٩ - NDE | ١٣ - تسي تسي ! |
| ٤١ - عن الطيور نحكى . | ١٤ - إنهم يعودون أحياناً . |
| ٤١ - سيد العبيات . | ١٥ - الرجل الذى لم يكن . |
| ٤٢ - فم ! | ١٦ - ٩٩٩ |
| ٤٣ - إلى الشمال . | ١٧ - دواء يقتل . |
| ٤٤ - داء الأسد . | ١٨ - عام الأفاعي . |
| ٤٥ - الشمس الأرجوانية . | ١٩ - الجمجمة . |
| ٤٦ - المرض السابع . | ٢٠ - المرض الأسود . |
| ٤٧ - الوحدة ٧٣١ . | ٣١ - الماساي . |
| ٤٨ - إنهم يكذبون .. | ٣٢ - قشعريرة . |
| ٤٩ - الشعار .. | ٣٣ - الانفجار . |
| ٥٠ - قصة بوليسية . | ٣٤ - الآن نرجوكم الصمت . |
| ٥١ - عودة ساحرة الأفاعي . | ٣٥ - كليمنجارو . |
| | ٣٦ - الظاهرة . |

- ١ - قصة لا تنتهى .
- ٢ - حكايات من الاشيا .
- ٣ - سفر .. سفر .. سبعة .
- ٤ - امبراطورية النجوم .
- ٥ - ذات مرة في الغرب .
- ٦ - غيبول ورماع .
- ٧ - ألعاب إغريقية .
- ٨ - مملكة الموتى .
- ٩ - المخافون .
- ١٠ - الاسم شكسبير .
- ١١ - نداء الأدغال .
- ١٢ - بين عالمين .
- ١٣ - رجل من كريبتون .
- ١٤ - من بعد سوبر مان .
- ١٥ - إعدام في المرح .
- ١٦ - شبح وشيطان .
- ١٧ - اقبلوا بطوط .
- ١٨ - قوم ومن معه !
- ١٩ - خمسة منهم !
- ٢٠ - من فعلها ؟
- ٢١ - لا تدخلوا شيرود .
- ٢٢ - قنعة السفاحين .
- ٢٣ - أرض .. قمر .. أرض .
- ٢٤ - فليدخل التنين .
- ٢٥ - من أجل طروادة .
- ٢٦ - عودة المحارب .
- ٢٧ - آخر أيام الرايخ .
- ٢٨ - ١٩١١ .
- ٢٩ - الوطواط .
- ٣٠ - عبقري .
- ٣١ - اسمه آدم .
- ٣٢ - في مملكة الأخوين .
- ٣٣ - أيام مع هاتيبال .
- ٣٤ - عرض لا تستطيع رفضه .
- ٣٥ - ما أمام الطبيعة .
- ٣٦ - حب في أغسطس .
- ٣٧ - فلاسفة في حساني .
- ٣٨ - عينان .
- ٣٩ - صديقي جلجاميش .
- ٤٠ - أرشيف القد .
- ٤١ - ألعاب فارسية .
- ٤٢ - الملل بعينه .
- ٤٣ - أسطورة نهر .
- ٤٤ - شيء من حتى .
- ٤٥ - تشي !
- ٤٦ - العالم الأخير .
- ٤٧ - الساحر وأنا .
- ٤٨ - اللغز .
- ٤٩ - يوم غرق الأسطول .
- ٥٠ - هي والآن .
- ٥١ - فلننقذ الدوتشي .
- ٥٢ - ب ٤ م .
- ٥٣ - بخاران .
- ٥٤ - عبقري آخر .
- ٥٥ - الميادون .
- ٥٦ - ليال عربية .
- ٥٧ - قصة كل ليلة .
- ٥٨ - البطل ذو الألف وجه .
- ٥٩ - في جحيم الألعاب .
- ٦٠ - وحدي من لا فكرافت .
- ٦١ - من قتل الامبراطور ؟
- ٦٢ - أحلام .
- ٦٣ - وعد جوناثان .
- ٦٤ - كونتيكي .

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغموض والرعب والإثارة

صدر من هذه السلسلة ..

- ١ - أسطورة مصاص الدماء .
- ٢ - أسطورة النداهة .
- ٣ - أسطورة وحش البحيرة .
- ٤ - أسطورة أكل البشر .
- ٥ - أسطورة الموتى الأحياء .
- ٦ - أسطورة رأس ميدوسا .
- ٧ - أسطورة حارس الكهف .
- ٨ - أسطورة أرض أخرى .
- ٩ - أسطورة لعنة الفرعون .
- ١٠ - أسطورة حلقة الرعب .
- ١١ - أسطورة الكاهن الأخير .
- ١٢ - أسطورة البيت .
- ١٣ - أسطورة الذهب الأزرق .
- ١٤ - أسطورة رجل الثلوج .
- ١٥ - أسطورة الثبات .
- ١٦ - أسطورة النافاراي .
- ١٧ - أسطورة حسناء المقبرة .
- ١٨ - أسطورة الغرياء .
- ١٩ - أسطورة يو .
- ٢٠ - حكايات التاروت .
- ٢١ - أسطورة عدو الشمس .
- ٢٢ - أسطورة المينوتور .
- ٢٣ - أسطورة رعب المستنقعات .
- ٢٤ - أسطورة إيجور .
- ٢٥ - أسطورة الجنرال العائد .
- ٢٦ - أسطورة المواجهة .
- ٢٧ - أسطورتنا .
- ٢٨ - أسطورة آخر الليل .
- ٢٩ - أسطورة الجاثوم .
- ٣٠ - أسطورة بعد منتصف الليل .
- ٣١ - أسطورتها .
- ٣٢ - أسطورة رفعت .
- ٣٣ - أسطورة أرض المغول .
- ٣٤ - أسطورة الشاحبين .
- ٣٥ - أسطورة دماء دراكيولا .
- ٣٦ - أسطورة الفضيحة السادسة .
- ٣٧ - أسطورة الدمية .
- ٣٨ - أسطورة النصف الآخر .
- ٣٩ - أسطورة التوءمين .
- ٤٠ - وراء الباب المغلق .
- ٤١ - أسطورة فرانكنشتاين .
- ٤٢ - أسطورة الكلمات السبع .
- ٤٣ - أسطورة تختلف .
- ٤٤ - أسطورة رجل يكين .
- ٤٥ - أسطورة بيت الأفاعي .
- ٤٦ - أسطورة طفل آخر .
- ٤٧ - المنزل رقم (٥) .
- ٤٨ - المومياء .
- ٤٩ - أسطورة العشرة .
- ٥٠ - في جانب النجوم .
- ٥١ - أسطورة الرقم المشنوم .
- ٥٢ - أسطورة مملكة .
- ٥٣ - أسطورة النبوءة .
- ٥٤ - أسطورة العراف .
- ٥٥ - أسطورة (٠٩٩٥٩٥) .
- ٥٦ - أسطورة ملك الذباب .
- ٥٧ - أسطورة المقبرة .
- ٥٨ - أسطورة أرض العفشايا .
- ٥٩ - أسطورة رونيل السوداء .
- ٦٠ - أسطورة المتحف الأسود .
- ٦١ - أسطورة الشيء .
- ٦٢ - أسطورة صندوق بتدورا .
- ٦٣ - أسطورة المحركين .
- ٦٤ - أسطورتهم .
- ٦٥ - أسطورة العلامات الدائمة .
- ٦٦ - أسطورة الرجال الذين لم يعودوا كذلك .
- ٦٧ - أسطورة بيت الأشباح .
- ٦٨ - أسطورة أرض الظلام .
- ٦٩ - أسطورة قاذي الفيلان .
- ٧٠ - الحلقات المنسية .
- ٧١ - أسطورة الضلال .
- ٧٢ - أسطورة الطولم .
- ٧٣ - أسطورة شبه مخيضة .
- ٧٤ - أسطورة أغنية الموت .
- ٧٥ - أسطورة الطفيل .
- ٧٦ - أسطورة معرض الرعب .
- ٧٧ - أسطورة الفتاة الزرقاء .
- ٧٨ - أسطورة حامل الضياء جـ ١ .
- ٧٩ - أسطورة حامل الضياء جـ ٢ .
- ٨٠ - أسطورة الأساطير جـ ١ .
- ٨١ - أسطورة الأساطير جـ ٢ .
- ٨٢ - عدد خاص (٨) تلك المدينة .

سافاري 52

معارف طبخ شاب يجلد كي يطل حيا ركي يطل حبيب



د. أحمد خالد توفيق

أيام الكونغو

هي قصة تدور في الكونغو، البلد الذي قرر الغرب أنه لا يمكن أن يتعم بثرواته أبداً .

قرر الغرب أن ثروة الكونغو هي حق مشروع للبلجيكيين .
هذه قصة تتكلم عن الجنون الذي يدفعك لقتل زملائك
بوابل من نار ، وتحدث عن توموميا ومويوتو والأمراض
التريفية .

يبدو الأمر معقداً لكنه سيتضح مع القراءة .

الكتيب القادم
الموت الأصفر

www.rewayatmasreya.com

facebook.com/rewayatmasreya

لخط الساخن
19350

تحت إشراف وزارة الثقافة - جمهورية مصر العربية



08934009